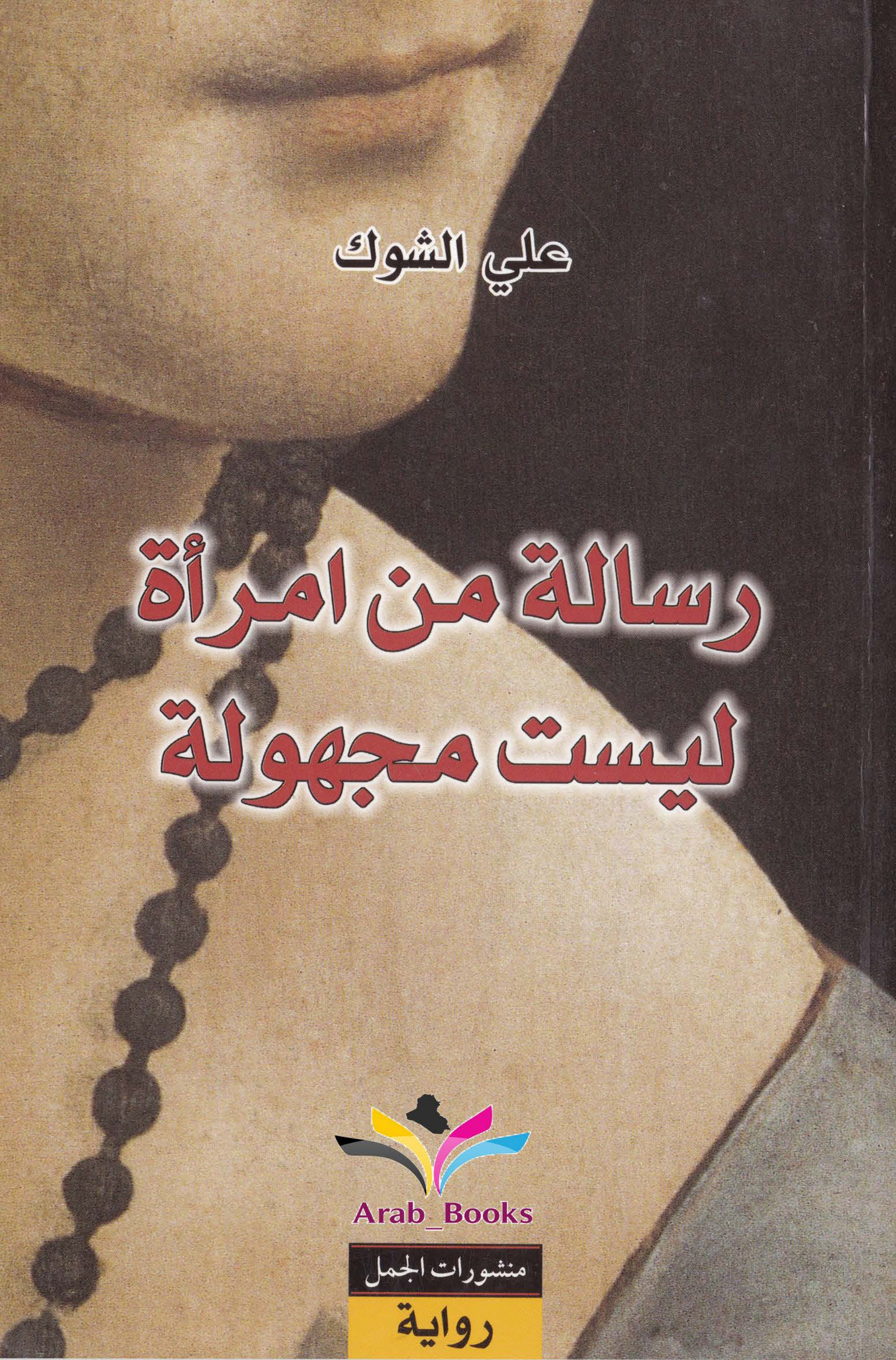

علي الشوك

رسالة من امرأة ليست مجهولة

Arab_Books

منشورات الجمل

رواية

علي الشوك: رسالة من امرأة ليست مجهولة

Tele: @Arab_Books

علي الشوك

رسالة من امرأة ليست مجهولة

نص قصصي

منشورات الجمل

Tele: @Arab_Books

ولد **علي الشوك** في بغداد عام ١٩٢٩. أنهى الدراسة الثانوية عام ١٩٤٧ والجامعة الأولية في الرياضيات على مرحلتين، في الجامعة الاميركية ببيروت ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩، وجامعة بركلي ـ كاليفورنيا بين ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢. وكان أحد مؤسسي مجلة **المثقف** العراقية التي صدرت بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣. وكان أحد أعضاء الهيئة الإدارية لمجلة اتحاد الأدباء العراقيين. اشترك مع أمجد حسين وغانم حمدون في ترجمة **الدون الهادئ** لميخائيل شولوخوف. من مؤلفاته: **الدادائية بين الأمس واليوم**، بيروت ١٩٧٠؛ **الأطروحة الفنطازية**، بغداد ١٩٧١؛ **الموسيقى الإلكترونية**، بغداد ١٩٧٨؛ **الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة**، لندن ١٩٨٧؛ **جولة في أقاليم اللغة والأسطورة**، دمشق ١٩٩٤؛ **ملامح من التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب**، دمشق ١٩٩٦. صدر له عن منشورات الجمل: **من روائع الشعر السومري**، ١٩٩٢؛ **الموسيقى بين الشرق والغرب**، ١٩٩٧.

علي الشوك: رسالة من امرأة ليست مجهولة، نص قصصي

الطبعة الأولى ٢٠١٣

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٣

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ١١٣ ـ ٥٤٣٨ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2013*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Tele: @Arab_Books

I

كانت زوجته قد أوت إلى النوم قبل أن يتجاوز الليل شطره الأول. وأحس بلسعة برد، فرأى أن يرفع درجة حرارة المدفأة. وحاول، أيضاً، أن يبعث الدفء في أوصاله، فأخذ يتمشى في الغرفة رواحاً ومجيئاً. كان قد كلَّ من الجلوس. وكان منذ مبارحة زوجته الغرفة، أطفأ جهاز التلفزيون، وفضل أن يستمع إلى الموسيقى. أحبّ أن يستمع إلى عزف على التشيلو أو الفيولا دا غامبا، من أحد أشرطته المسجلة. كان محزوناً. والموسيقى هي الوسيلة الوحيدة التي يشعر أنه يستطيع أن يتسامى بواسطتها على أحزانه. لقد دهمته حال من الكآبة لم يشهد لها مثيلاً من قبل. فلم يفلح في السيطرة على دموعه إلا بصعوبة. كان ذلك عندما تذكر رسائل ناديا، لأول مرة منذ سنوات، كان قد احتفظ بعشر منها بعد أن انتقل من بلد أوروبي إلى بلد أوروبي آخر. كان عدد رسائلها كثيراً، بعدد رسائله إليها. لكنه لم يستطع حمل كل أوراقه وأشيائه الأخرى، حين انتقل إلى البلد الأوربي الثاني. كان لا بد أن يتخفف من حمله. لقد تخلى عن ملابس، وأثاث، وترك مكتبة بكاملها، وأوراقاً كثيرة، بعضها يمكن الاستغناء عنه،

Tele: @Arab_Books

وبعضها الآخر أودعه عند أصدقاء. لكنه لم يستطع إيداع رسائلها عند أحد، فأتلف معظمها، واختار عشر رسائل، انتقاها من بينها لا على التعيين، لأن وقته كان مضغوطاً لم يُتح له فرصة لقراءتها كلها من جديد ليفرز من بينها ما يود الاحتفاظ به.

كان ذلك قبل عشر سنوات. وكانت صلته بناديا قائمة، فلم يكن يشعر أنه سيفقد شيئاً عزيزاً جداً لو تخفف من الكثير من هذه الرسائل. لكنه، الآن، بعد أن فقدها هي أيضاً، حزن كثيراً على فقْد تلك الرسائل. إن لكل رسالة، عنده، قيمة لا تقدر بثمن. فكيف فرّط بعدد كبير منها، مع أن حمل هذه الرسائل لن يزيد من وزن متاعه كثيراً. كان يهمه آنذاك أن يوفر مكاناً للوحاته، كلها، وقد شغلت حيزاً كبيراً من متاعه المنقول. لكنه أحس الآن بخسارة كبيرة لضياع هذه الذخيرة من الرسائل. كيف فعل ذلك؟ كيف ارتضى لنفسه أن يُلقي بتلك الإضمامة العزيزة من الأوراق في برميل النفايات؟ أمن المعقول أنه فعل ذلك؟ ألقى بها في برميل النفايات؟ مستحيل... وكالغريق الذي يتشبث بقشة، تمنى لو كانت هناك وسيلة لاستعادة تلك الرسائل. فقد بدت له الآن أثمن شيء في الوجود. فكيف فرّط بها؟ وازداد شقاؤه الآن بعد فقْدها هي ورسائلها، باستثناء هذه المجموعة الصغيرة، التي استلها من بينها لا على التعيين. وعصف به الحنين لقراءة هذه المجموعة. فتقدم نحو مكتبته، وفتح بابها الأسفل، وأخذ يبحث عن لفافة كان قد احتفظ فيها بهذه

Tele: @Arab_Books

الرسائل. فوجدها بين عدد من المظاريف التي تحتوي على صور فوتوغرافية، بينها صورها هي. بعض هذه الصور لها بمفردها، وبعضها الآخر معه. هناك صورة لها عندما كانت في عنفوان صباها وشبابها، ربما في الثامنة عشرة من عمرها. هذه الصورة تُظهرها في أوج فتنتها وتألقها، واعتدادها بجمالها. لكن لها صورة أخرى، مع زوجها، ربما كان عمرها فيها في أواخر العشرينات، تظهر فيها أنبل وأرقّ امرأة عرفها في حياته. أحبّ أن يلقي على هذه الصورة نظرة الآن. كانا (هي وزوجها) واقفين متكئين على مكتبة (في غرفة)، وقد مالت هي إليه كطفلة تنشد حناناً. وكان هو، بطوله الفارع، ولحيته الخفيفة، وشاربيه الخفيفين، ونظارته القاتمة نسبياً، يبدو كأب بالنسبة لها، مع أنه لا يكبرها إلا بأربع سنوات. لكنها هي كانت بطولها، الفارع أيضاً، ونظرتها الكسيرة، رغم كل هيئتها الارستقراطية، توحي بأنها تنشد انتماءً وحماية. هذه الصورة تركت هيثم في حال من الإشفاق والانسحاق التامين تجاه صديقته ناديا. وعززت عنده الانطباع الآن بأنها مخلوقة معذبة، على نحو ما جاء في إحدى رسائلها. فدمعت عيناه بغزارة عندما شرع بقراءة هذه الرسالة، وهي مكتوبة باللغة الإنكليزية، مثل جميع رسائلها:

«٢١ نيسان، ١٩٩٠

عزيزي هيثم

بدأت بكتابة رسالة (قبل هذه) ثم مزقتها، لأنني رأيت أن لا

Tele: @Arab_Books

أدخل في مزيد من التفاصيل. كما سبق أن علمت، أنا لا أشعر الآن أنني مرتاحة البال بأي شكل من الأشكال. إنني أشعر بأنني في حال متزعزعة وممزقة تماماً. . . لا بد أنك تدرك شعور المرأة عندما تفقد أملها في مستقبلها. هيثم، لعلك تدرك ذلك، لكنك لا تستطيع أن تتفهم هذا الإحساس تماماً، لأنك رجل، سيعود يوماً ما إلى عائلته، ويعرف أين هو مستقبله. لقد كنت تدرك ذلك دائماً، ولست ألومك على ذلك، ولا أحمل ضغناً عليك بسبب ذلك. نحن كلنا بشر، ونريد لحياتنا ومستقبلنا أن يكونا على أفضل ما تتيحه الظروف. أنا أيضاً أريد أن أعيش، وأن أكون سعيدة، لكنني أشعر، لسوء الحظ، إنني لقيت إهمالاً. فأنا لم أعد أنتمي إلى أي مكان، أو إلى أي إنسان. كل هذا حدث فجأة وفي وقت معاً. ولست ألوم أحداً على ذلك. كنت أنا أتمتع بالقدرة على توجيه حياتي الوجهة التي أريدها. وكنت دائماً أتبع غرائزي. هكذا كنت منذ صباي. كنت دائماً أريد أن أنهج نهجي الخاص. وقد فعلت ذلك. وأتمنى الآن حقاً لو أن الأمور كانت مختلفة. أتمنى لو أنني واجهت ظروفاً أقسى. لربما ساعدني ذلك الآن على تدبير أموري على نحو أفضل. . . إنني أكتب إليك الآن لأنني أشعر بأنني لا أستطيع الاختباء وراء الحقائق. لقد قلتَ لي عبر الهاتف إن عليّ أن آخذ في الحسبان بأن هناك من هم في أوضاع أسوأ. صدقني إنني أفكر في الآخرين. لكن هذه ليست الوسيلة التي تنسى فيها نفسك وهمومك. لا أريد أن أشغل بال

Tele: @Arab_Books

الآخرين في مشاكلي. بل أتمنى أن يكون في مقدوري حل مشاكلي بنفسي. بيد أنني لا أنسى أن الأشخاص الذين شجعوني ذات مرة (زوجي)، وكانوا بحاجة إليّ (أنت)، حاولوا أن يتخلوا عني الآن. عندما قلتَ لي عبر الهاتف: «إذا كنتُ أنا عائقاً، وإذا كان انسحابي يحل المشكلة، فأنا على استعداد للانسحاب، لأجل وضع حد لعذابك. ورغم صعوبة تحمل مثل هذا القرار، فأنا جاهز لعمل أي شيء من أجلك». أي أن تتوارى عن عالمي. هيثم، إن آخر شيء يمكن أن يطرأ على بالي هو أن أسمع مثل هذا الكلام البارد من الرجل الذي كنت أحبه دائماً، وأحببته في أصعب المواقف. أنا لم أتراجع قط، ولم يمنعني شيء من الرغبة في أن أكون معك. ثم، أو لم أكن تلك المرأة التي تبعث البهجة في حياتك بين الحين والآخر؟ أنا لا أريد أن يشار إليّ بأنني امرأتك التي أصبحت الآن لديها مشاكل، وكأنك تبقي نفسك في معزل عن أي شيء. عندما قلتُ لك إنني أفكر في طلاق زوجي، فإن علاقتي الحالية بك لن تغير الأشياء. وإذا رأيت اتخاذ هذا القرار، فإنني سأتخذه. وبقدر تعلق الأمر بنا، أنت وأنا، فأنا سأبقى تلك المحبة، وسأظل أشعر بالحاجة إلى أن ألتقيك، لكن ينبغي عليك حقاً أن تبرهن على أنك تهتم بي.

هل تعتقد أننا لو قطعنا الصلة بيننا، فإن ذلك سيحل مشاكلي، ويعيدني إلى زوجي؟ مطلقاً، لا. ربما كان ذلك ممكناً قبل سنتين أو ثلاث، لكن ليس الآن... زوجي لا يريد طلاقاً، ولا

Tele: @Arab_Books

ابني. بيد إنني بدأت أفكر في نفسي. إذا حدث أن افترقنا (أنت وأنا)، وانقطعت بيننا الأسباب، فلن أفكر في الارتباط بأي رجل آخر. أفلا تعتقد، والحال هذه، أنني أستحق (بعد كل الذي مرّ عليّ) أكثر من أن تقترح عليّ بأن تنسحب، لحل المشكلة؟ إن ما أنا بحاجة إليه الآن هو أن تُشعرني بأنك تُعنى بي من كل قلبك وفي كافة الظروف. تُشعرني بأن هناك من يمنحني حبه، ولا يدير ظهره لكل ما عشناه سوية.

أرجو أن تتلفن لي بعد أن تقرأ هذه الرسالة، ولا تحاول أن تعيد على مسمعي: «أنتِ لم تفهميني». أنا أفهم لماذا تقترح تلك الأشياء عليّ. أنت لا تريد أن تكون سبب عذابي. لتعلم، إن ما حصل، قد حصل. نحن لا نستطيع تغيير ذلك. لقد قدّمتُ ما كنت أريد أن أقدمه إلى رجل كان كل شيء بالنسبة لي، ولا أحسبني أطلب الكثير الآن. لذا ينبغي عليك أن تفهمني. مع كل حبي: ناديا.

في الختام، أنا لا أريد أن تعتبرني تلك المرأة التي ستدبر أمرها، المرأة التي يتعين عليها أن تحل مشاكلها، المرأة التي تجدها أمامك دائماً، مهما عاملتها.

أشعر أنني أهنت بعض الشيء، لأجل هذا كتبت لك الكلمات الأخيرة. لكنك تعلم أنني لا أريد أن أعقّد العلاقة بيننا. أنا لا أنشد سوى أن أكون أكثر اطمئناناً».

كانت عيناه تدمعان طوال هذا الوقت بغزارة. وأجهش بالبكاء

Tele: @Arab_Books

أيضاً، عندما قرأ كلمات العتاب. فقد دمّره هذا العتاب، وأفقده السيطرة على دموعه. وظل يجهش بالبكاء بلا توقف، حتى تناهى صوت نشيجه إلى سمع زوجته النائمة في غرفة أخرى. ما هذا الذي تسمعه؟ ماذا جرى له، يا إلهي؟

أزاحت عنها اللحاف، ونهضت من على سريرها، ثم ارتدت خفها، وتقدمت نحوه:

«ما هذا، يا هيثم؟ هل تحس بوجع؟».

أجابها مرتبكاً، وقد غصّ بكلامه: «لا، يا عزيزتي».

«ما هذا البكاء، إذن؟».

«تملكتني حال من الكآبة».

وقع بصرها على مجموعة من الرسائل، وعلى الرسالة المفتوحة التي كان يقرأها: «ما هذه الأوراق، يا هيثم؟».

«إذا شئت الحقيقة، هي سبب كآبتي... أنا أشعر الآن أنني لا أستطيع الفكاك من هذه الأوراق. إنها تمزق نياط قلبي».

«هل هي منها؟».

«نعم».

«هيثم، أنا احترمت خصوصياتك، بعد أن طلبت أنت ذلك. أو إذا شئنا الحقيقة، أنت فرضت عليّ ذلك، مقابل أن تخرج هي من عالمك، وها أنت تعود إليها وإلى رسائلها، يا هيثم».

بكى، وقال: «أنا مريض، يا أميرة».

Tele: @Arab_Books

«ما هذا الكلام، يا هيثم؟».

لم يتوقف عن بكائه، ولم يحب أن يشرق بكلامه، فلوّح بيده، وهو دامع العينين، بما يفيد أنه عاجز عن الكلام.

فقالت: «يا إلهي، ما هذه الطرقاعة؟ أصحيح أنك لا تستطيع السيطرة على دموعك؟».

«أعتقد أنني أصبت بداء الكآبة. ألم تسمعي عن مرض الكآبة؟».

«لا، لم أسمع به بهذا الشكل. كل الذي أعرفه أن بعض الناس يكتئبون، لكنني لم أسمع أنهم يبكون أيضاً». ثم قالت: «لكن، ما الذي ذكرك برسائلها؟».

قال هيثم أنه، بالفعل، كان قد نسي رسائلها. لكنه لم ينسها، هي. كانت تخطر على باله بين الحين والآخر. وكان يتألم لأجلها، ولا يستطيع نسيان واقع أنه كان سبباً في شقائها. فقد ضحت بزوجها من أجله، أو إن استمرار علاقتها به كان أحد أسباب القطيعة مع زوجها. إنها مسألة معقدة. وهي تتحمل جزءاً من المسؤولية، بسبب إهمالها زوجها، مع أنه، هو، هيثم، كان يلح عليها بأن تحسن علاقتها بزوجها...

كانت أميرة تسمع كلام زوجها، هذا، لأول مرة. أدهشها أنه تحدث في هذا الموضوع بهذه الصراحة. إنه موقف جديد منه، لا يخلو من لا أبالية، واستهانة بالقيم الزوجية، وبالميثاق المبرم

Tele: @Arab_Books

بينهما. ويبدو أنه هو لم يعد يهمه أن يكتم هذه المعلومات عن زوجته، لأنه صار يعتقد، الآن أن كتمانها يزيده كآبة، وأن البوح بها يساعده في التغلب على كآبته. لكنها هي لم تفهم هذا كله، سوى أن القلق استبد بها الآن، عليه، وخوف أن يعود إليها.

لكن هذا ربما لم يعد وارداً الآن. لو كان ذلك ممكناً، أي العودة التامة إليها، لربما كانت خير فرصة لذلك قبل خمسة عشر عاماً، أيام تسلم رسالتها تلك، أو بعد ذلك بعام أو عامين. وكان هذا ممكناً إذا انفصل عن زوجته، مثلما فعلت هي، ناديا (مع أنها لم تنفصل عن زوجها لكي يتزوجا). لكنه لو انفصل عن زوجته لتزوجا، هو وناديا، بيد أنه لم يفعل ذلك، ولم تضغط عليه ناديا بصورة واضحة وصريحة (أو لعلها كانت تود ذلك في دخيلتها، لكن دون أن تلجأ إلى مطالبته بأن يفعل ذلك). والمهم أن هيثم لم يرد أن يبادر بالانفصال عن زوجته، مع أنه كان يتمنى لو تبادر هي بمفاتحته بالطلاق، الذي كانت تلوّح به، لكن دون أن تكون جادة فيه. كانت تتذمر من الوضع الذي تركهم فيه، هي وابنهما وابنتهما، عندما هاجر إلى بلاد المنفى لأسباب تتعلق بحريته، بعد أن طُلب منه أن ينتمي إلى حزب السلطة.

وفي الخارج تعرّف إلى ناديا، ونشأت بينهما علاقة حميمة جداً دامت سنوات طويلة، تخللتها مسرات وعذابات، لكنها كانت في مجملها مشواراً فردوسياً لكليهما. ولعل المنغص الوحيد لهذه العلاقة كان ارتباط هيثم بعائلة. وهنا كان هو أضعف

Tele: @Arab_Books

منها في اتخاذ القرار. فقد استهانت هي بوضعها العائلي (زوج وابن)، مفضلة علاقتها به على أي شيء آخر. فهل كان هو يحس بأنه لم يكن ملزماً بالانفصال عن زوجته، لأنها كانت محبة له في كل الأحوال، كما ألمحت في رسالتها؟ هذا ما جعله يشعر الآن بعذاب الضمير، وبأنانيته، مقابل حبها المطلق، إلى جانب كل الخدمات التي كانت تقدمها له... الآن أحس بفداحة موقفه الأناني، ونبل موقفها. لكنه نسي ذلك كله بمرور السنين، سوى أن طيفها كان يزوره بين الحين والآخر، فيحرك عنده هاجساً من الحنين والحزن، وإحساساً بعذاب الضمير. على أنه عندما قرأ رسالتها الآن، فقد السيطرة على نفسه، وتملكته حال قاتلة من الكآبة. وأصبحت هذه الرسالة سبب شقائه الآن، فما العمل؟ إن كل همه تركز الآن في التكفير عن موقفه السابق «البارد» تجاهها.

لحسن حظه أن ناديا لا تزال على قيد الحياة. ليس ذلك فحسب، بل هو يعرف عنوانها ورقم تلفونها. كان هذا بصيص أمل له. لكن العقبة تكمن في الوصول إليها، وهو على عهده الذي ضربه مع زوجته أميرة. فما العمل؟

كان أمله متوقفاً على زوجته أميرة، التي التحقت به أخيراً إلى أوروبا، بعد أن تخرج ابناهما من الجامعة، وتزوجا، وانصرفا إلى حياتهما الخاصة.

لم تتعرض العلاقة بين هشام وزوجته أميرة إلى الهزات إلا بعد أن ترك العراق. أما قبل ذلك، فكانا على أتم ما يكون من

Tele: @Arab_Books

الوئام، باستثناء ما يحصل أحياناً من خلاف بين أي كائنين يعيشان تحت سقف واحد. وقد عاش هيثم معها، في العراق، حياة سعيدة بكل معنى الكلمة... كانت أميرة خريجة كلية، وعملت في الجهاز الحكومي سنوات طويلة، وشاركت في دخل البيت. ولم تكن تفتقر إلى الخصال الإيجابية في كل شيء تقريباً، وفي المقام الأول مستواها الثقافي الجيد. فهي لم تتخلَّ عن القراءة الجادة حتى هذه اللحظة. كانت تقرأ كل شيء جاد، بما في ذلك كتب التراث، مثل رسائل إخوان الصفا، ومقدمة ابن خلدون، والعقد الفريد، وكتب الجاحظ، إلخ، وبعض المؤلفات الماركسية، والوجودية، إلى جانب المؤلفات الأدبية، بما في ذلك أروع الروايات الغربية (المترجمة)، والكتابات الريادية العربية في الشعر والنثر... وكانت أميرة معروفة بوسامتها، ورشاقة جسدها الفارع، وبياض بشرتها (كانت تُدعى: الطويلة البيضاء). وكانت عصرية الذهنية، وتتمتع بقوة شخصية، يفتقر إليها كثير من الرجال.

كانت حياتهما أقرب إلى أن تكون مثالية في الوسط (النخبوي) الذي كانا يعيشان فيه، مع عدد من الأصدقاء من نفس المستوى. ثم بدأت الأوضاع تدلهم أكثر في العراق منذ العام ١٩٧٩. فاضطر هيثم إلى الهجرة بعد أن تعرض إلى المضايقة من الجهاز الحزبي في السلطة، وترك خلفه أميرة وابنيهما اللذين كانا ما يزالان صغيرين في المدرسة الابتدائية.

Tele: @Arab_Books

ومع تفاقم الوضع في العراق، الذي خاض أكثر من حرب، شعرت أميرة بأنها مغبونة تماماً في هذه الصفقة. فهي تكدّ وتلهط لإعالة ابنيها إعالة كريمة، وتربيتهما تربية قويمة، وهيثم «يتسكع» في أوروبا، متنصلاً من أية مسؤولية تجاه العائلة، باستثناء بعض المعونات المالية التي كان يُمد العائلة بها بين الحين والآخر، على قدر ما تجود به ظروفه المعاشية.

ولهيثم فلسفة في الحياة تنطوي على موقف لبرالي من كل شيء، بما في ذلك رابطته الزوجية، التي لا يريد أن يعتبرها قفصاً كاثوليكياً. كان يريد أن يكون حراً، وفي حلٍّ من الزواج متى شعر بأنه أصبح عبئاً على أي من الطرفين. وتمنى، بعد أن ترك العراق، لو تقرن أميرة أقوالها بالأفعال حين كانت تُسمعه كلاماً عن الطلاق. فقد كان في حسبانه أنها كانت مثله تتمتع بذهنية متحررة، بعد أن وعدته، بناءً على طلبه، بأن يعيشا بلا أطفال، أو إنجاب، لأن أقتل ما يقتله هو أن يكون مسؤولاً مسؤولية لا يستطيع التنصل منها عن آخرين من صُلبه. لذلك اشترط على أميرة، منذ البدء، أن تخلو حياتهما من الأولاد. لكن أميرة غشّته فيما بعد، مبررة ذلك بأن موقفها السابق شيء، وهو شيء آخر بعد الزواج، لأن فيزيولوجية المرأة تدفعها غريزياً للإنجاب (ثم تغير موقفه من الأولاد بعد أن جاءوا إلى الدنيا، مع أن مسؤولية تربيتهم ظلت تؤرقه)... وفي كافة الأحوال كان هيثم يرى أن هناك خللاً في مؤسسة الزواج، رغم أنه لا يرى أن هناك

Tele: @Arab_Books

بديلاً أفضل. . . وأن الخلل موجود في الحياة أصلاً، في مستويات الذكاء المتباينة بين البشر، وفي الفرص غير المتكافئة المتاحة للناس، كما هو الحال في الفوارق الطبقية، إلخ.

لكن القدر كافأه بموهبته الفنية، التي وجد فيها سلوانه في هذه الحياة التي لم يستطع هضم الكثير من سلبياتها ومفارقاتها. وقد عزز ذوقه الواقعي الصارم في كل شيء عنده النزعة الواقعية في الفن أيضاً، رغم علمه بأن الفنون التشكيلية ابتعدت كثيراً عن الواقعية، ربما باستثناء السريالية، التي تبنت الشكل الواقعي. (لأجل ذلك بقي محباً للنهج السريالي في الرسم، مع عدم إعجابه بسلڤادور دالي، باستثناء ساعاته المائعة). وقد برع برسم البورتريه، مع أنه يرى ذلك عملاً أقرب إلى الصنعة الحرفية منه إلى الفن. لأجل ذلك لجأ إلى رسم الخيل، وأصبح فناناً في رسم هذه الكائنات بامتياز، دون التقيد دائماً بالنهج الواقعي. وكان من بين مآثره في هذا الحقل أن الخيل التي رسمها في فيلم كارتوني أنتج في المجر، من إخراج صديق عراقي، اعتبرت من بين أجمل الخيول في رشاقتها وحركتها. ثم أصبح معروفاً ببراعته هذه. لكن عمله في أفلام الكارتون لم يكن مجزياً بما فيه الكفاية، لأن الفرص كانت محدودة. وبعد كدّ سنوات في الغربة استطاع أن يحقق تقدماً في إطار سمعته كفنان، وعلى الصعيد المالي. وكان هو يعرف قيمته كفنان، ويرى أن من حقه أن يكون أكثر استقلالاً في حياته، وحرية في علاقاته. وكان يود لو تتفهم

Tele: @Arab_Books

ذلك زوجته أميرة، وينشد منها أن تتقبل وضعه في الخارج، بما في ذلك علاقاته مع النساء، أو بالأحرى مع ناديا. لكنه بعد أن حدث الذي حدث، وعادت إليه أميرة، وتقدم به العمر، تراخى، وأصبح مقتنعاً بالأمر الواقع، رغم أن حياته أصبحت تعيسة وكئيبة، بعد افتراقه عن ناديا. فظل يحنّ إليها بكآبة مدمرة بين الحين والآخر، ويود لو يلتقيها، ويقف على أخبارها. . . ثم هتف في رأسه هاتف الرسائل، ولم يقاوم الرغبة في قراءتها، بعد كل تلك السنوات من النسيان والتناسي. ودهمته هذه النوبة العنيفة من الكآبة. فما العمل؟

هنا، رأى هيثم أن يتخلى عن عهده، وعن تكتمه، بأمل التغلب على حالة الكآبة التي أفقدته توازنه. فسأل زوجته أميرة إن كانت تستطيع أن تتفهم وضعه، وتستجيب إلى التماسه بأن تكون متسامحة معه، إذا اتصل بناديا؟ ولا ينبغي أن يدخل في روعها أنه سيستعيد علاقته السابقة معها، التي مرت عليها سنين، ثم أن عمره الآن لا يؤهله لممارسة دور العاشق. لكنه يشعر أن اتصاله الآن بناديا، وتبادل الحديث معها، يمكن أن يلعب دوراً كبيراً في علاج كآبته. لأنه بغير ذلك، سيظل يعود إلى رسائلها، ويبقى فريسة للأحزان التي تستنهضها هذه الرسائل.

نظرت إليه أميرة بإشفاق لا يخلو من استنكار: فوق كل تلك المذلة التي سببها لها بتعرفه على هذه المخلوقة، وتوطيد علاقته بها لسنوات طويلة، يريد منها الآن أن تأذن له بالاتصال بها.

Tele: @Arab_Books

لكنها تعلم أيضاً أنها لا تستطيع الوقوف في وجهه إذا أراد هو أن يفعل أي شيء، سواء بالخفية، أو العلانية. فما جدوى معارضتها؟ قالت:

«لماذا تطلب رأيي، وأنت تستطيع أن تفعل ذلك من وراء ظهري؟».

«لأن تكتمي ظل يوخز ضميري، وكنت أتمنى دائماً لو أنني أستطيع مكاشفتك بالحقيقة، إلى أن وقفت أنت على هذه الحقيقة عن طريق القيل والقال، واضطررت أنا أن أكاشفك بها عندما واجهتني بموضوع الالتحاق».

قالت له: «اسمع، هيثم، أنا كنت أعلم بأن لك حياتك الخاصة. أنا أعرفك جيداً. كنتَ دائماً تؤكد على هذا الجانب في أحاديثك وسلوكك. وكنتُ أنا أفضل أن أتغاضى عن ذلك. لكنني مع ذلك كنت أمنّي نفسي بأنك خال من العلاقات. أما وقد انكشف ذلك، فهل تعتقد أنني قانعة به؟ إن جرحي لم يندمل، ولن يندمل يوماً ما. ولك أن تتصرف بالطريقة التي تريدها. لكنك لن تنتظر مني أن أبارك لك الاتصال بها».

«أنت تزيدين شقائي بذلك، يا عزيزتي أميرة، ولا تساعدينني في معالجة كآبتي».

«هيثم، اتركنا من موضوع الكآبة هذه. هل أنت جاد في ما تقول؟».

Tele: @Arab_Books

«ولماذا أصطنعها، يا عزيزتي؟ كل هذه السنين وأنت لم تفهميني جيداً؟ هل تعتقدين أنني من السذاجة والتفاهة بحيث أفتعل شيئاً أنا لم أتعرض إليه؟ أنت تسيئين إلى هذا الجو من التفاهم بيننا، يا عزيزتي، أرجو أن تعلمي أنني أعاني، بالفعل، من إحساس غريب بالكآبة».

«طيب، افعل ما تشاء. أنا لا أريد أن أكون سبباً في زيادة شقائك. لكنك لا ينبغي أن تنسى أن ذلك سيكون سبباً في شقائي أنا».

«لم نفعل شيئاً، إذن. . . إكراماً لشيخوختي، أميرة، تنازلي، وحققي لي هذه الرغبة».

«طيب، هيثم، لك ما تريد، على أن لا تفعل ذلك بحضوري».

«بالطبع، يا عزيزتي. أنا ممتن لك، يا حبيبتي، وألف شكر».

«لك ما تريد، إذا كان ذلك يريحك».

«شكراً، يا حبيبتي».

في اليوم نفسه اتصل هيثم بفلوريدا، فجاءته على الخط شقيقتها لِلِي، قال لها: «للي، يا عزيزتي، أنا هيثم البغدادي».

«آ، سيد هيثم، كيف الصحة؟ صار زمان».

«نعم، يا سيدتي، أنا الآن عجوز يعتقد أنه يستطيع أن يجد سلوانه في استعادة ذكرياته».

Tele: @Arab_Books

«لم لا. طبعاً، طبعاً، أنا أفهمك، سيد هيثم. لا بد أن الحنين عصف بك إلى استعادة ذكرياتك مع نادبا».

«بالضبط، ست للي. هل أستطيع..».

«بالتأكيد. إنها هنا، سأناديها».

بعد لحظات جاءه صوتها: «هلو؟»

«يا حبيبتي الغالية، أية سعادة أن أسمع صوتك الآن».

«هيثم، ما هذه المفاجأة؟».

«ناديا، لو تعلمين أن هذه أسعد لحظة في حياتي، أن أسمع صوتك».

«أوه، هيثم، بعد كل تلك القطيعة؟».

إنهار هيثم تماماً لدى سماعه هذه الكلمات المعاتبة. فقد نكأت جرحه، وزادته إحساساً بالكآبة. فبكى، ولم يعد بمقدوره مواصلة الكلام معها بلا نهنهة. قال وهو ينهنه: «ناديا، يا حبيبتي، كوني رحيمة بحالي، أنا متمزق إلى حد الانهيار، من أجلك».

«هيثم، أنا لم أقصد شيئاً سوى أنني أردت أن أؤكد أن جرحي لم يندمل، يا حبيبي. وأنت تعلم أنك كنت وتبقى أعز وأهم رجل في حياتي».

«أوه، يا حياتي، هذا كلام يسعدني، لكنه لا يريح ضميري لنهاية. ناديا...».

وعاد إليه بكاؤه، لأنه أراد أن يتطرق إلى رسالتها. فخنقته

Tele: @Arab_Books

العبرة. إن مجرد تذكر رسالتها يورث عنده إحساساً حاداً بالكآبة، ووخز الضمير. فسمعت من بين نهنهته كلمة «الرسالة»، ولم تفهم. قالت له:

«هيثم، ماذا تقصد؟ أية رسالة؟».

«رسالتك، يا حبيبتي. . أعني إحدى رسائلك. هل تذكرين؟ ٢١ نيسان ١٩٩٠؟».

«دعني أتذكر، يا هيثم. أنت تريد مني أن أتذكر رسالة كتبتها قبل خمسة عشر عاماً. . . ما بها، يا هيثم؟».

«أوه، يا حبيبتي». ولم يستطع مواصلة الكلام.

فقالت: «ما الذي يبكيك، يا حبيبي؟ أنا أعلم أن هذا بحكم تقدم السن. . . وبهذه المناسبة، قبل أن نعود إلى موضوع الرسالة، سأطلب منك، ياحبيبي، أن تكون قوياً، كما كنتَ. هذا، أولاً. وثانياً، قل لي كيف هي صحتك؟ فأنت تعلم أن أخبارك تهمني كثيراً، يا هيثم».

«آه، الآن أنا أكثر قدرة على تمالك نفسي ودموعي. فقط عندما أسمع منك أنك لستِ متألمة مني».

«آه، يا حبيبي، لو تعلم كم أنا سعيدة الآن بسماع صوتك. وإذا كان هناك شعور بالملامة، فقد زال منذ هذه اللحظة».

«هذا أحسن. . المهم، هل نسيت تلك الرسالة؟».

«أية رسالة، يا هيثم؟ لم يعد ذهني يتذكر رسالة خاصة كتبتها إليك. أية رسالة تقصد؟».

Tele: @Arab_Books

«كنتِ تتحدثين فيها عن همومك، ومشاكلك مع زوجك، وعن حالة الضياع التي كنتِ تعيشينها، وعن برودي أنا لأنني أبديت استعدادي للانسحاب من عالمك إذا كان ذلك يساعد في استعادة علاقتك بزوجك، إلخ».

«أوه، يا حبيبي، لم أعد أذكر ذلك. الشيء الوحيد الذي لا يبرح ذاكرتي هو أنني خسرت كل شيء. خسرت زوجي، وخسرتك أنت».

«وهذا هو سبب شقائي الآن، يا ناديا. . . لو تعلمين أن هذا يدمرني».

«لا داعي لأن تتألم، يا حبيبي، لأن ما حصل قد حصل، ولا نستطيع إصلاحه».

وأجهش بالبكاء، لأن كلامها هذا كانت قد ذكرته في رسالتها أيضاً. فقد وردت هذه الكلمات بالحرف الواحد. ثم حاول السيطرة على دموعه، وقال لها ذلك.

«أوه، يا حبيبي هيثم، أنا آسفة لزلة لساني. لكن ألا يكفيك الآن أن أؤكد لك أنك أكثر إنسان أسعدني في حياتي؟».

«هذا أحسن، هذا يجعلني أقل شقاء، وأقل شعوراً بوخز الضمير. ناديا، بالمناسبة، كيف هو وضعك الآن؟ وماذا تفعلين؟».

أخبرته أنها تعيش الآن مع أختها للي، كما يعلم، وأن ابنها

Tele: @Arab_Books

أنهى دراسته الجامعية بدرجة ماجستير، منذ سنوات، ووجد عملاً في بريطانيا. وهو يعيش الآن مع صديقة إنكليزية تخرجت معه، وتعمل أيضاً في إحدى الشركات. وهي، ناديا، تحيا حياة مملة في فلوريدا، مع شقيقتها للي، التي تعاني من وضع نفسي غير مستقر. وكذلك هو حال زوجها، الذي يُعاني من عقدة فييتنام. لكنه رجل طيب، ويعاملها بود واحترام. وهي، طبعاً، لا تعيش عالة عليهما، لأنها، مثل أختها، تسلمت حصة من تركة أبيها بعد وفاته. وقد توفيت أمها أيضاً. . . وهذا كل ما في الأمر. أي أنها لا تستطيع أن تعتبر نفسها سعيدة بأي شكل من الأشكال. على أنها تعتبر السنوات التي قضتها معه، أسعد مرحلة في حياتها.

ثم سألها إن كانت تحتفظ برسائله. فأكدت أنها لم تتلفها. لقد تركتها مع بعض أوراقها وحاجاتها الأخرى، في صناديق عند جارتها القديمة كريستين في بروكسل. وقد اتصلت بها كريستين مرة، وأخبرتها بأنها قد لا تستطيع الاحتفاظ بأشيائها هذه بعد الآن، لأنها قد تنتقل من شقتها. ولم تدرِ ناديا ماذا تفعل، لأن ذلك يتطلب زيارة بروكسل، ولم يكن مزاج ناديا يسمح لها بالسفر من أميركا إلى هناك.

جزع هيثم لهذا الخبر، وقال لناديا إنه على استعداد لدفع نفقات سفرها وإقامتها في بروكسل من أجل استعادة رسائله، لأنه يعتبرها أعز إرث بقي في حياته.

فقالت ناديا: «ليست المشكلة المالية هي العائق، مع ذلك سأحاول فعل شيء، إذا كنت تريد استعادة الرسائل».

Tele: @Arab_Books

«أرجوك، يا حبيبتي».

ثم سألته: «وكيف هو وضعك الآن مع زوجتك؟».

قال لها: «وضعي طبيعي، يا ناديا، لا سيما أننا، أنت وأنا، مفترقان، أو مبتعدان. هي لا تزال تُعدّ ألذّ الطبخات، وتتابع الأخبار السياسية باهتمام، ولم تتخل عن القراءة، لكن عينها تخذلها أحياناً... وهي أكثر تسامحاً بكثير من قبل، وتعقلاً. ولا تزال تدير أعمال البيت، وأعمالنا الأخرى، بكل كفاءة...».

«هذا ما كنت أتوقعه. إنك في آخر المطاف تعود إلى حياتك العائلية. أما أنا فقد ضيعت كل شيء».

وعادت إليه كآبته، ودموعه، ونهنهته: «أنت تعودين مرة أخرى إلى رسالتك. فقد ذكرت مثل هذا في رسالتك تلك. وهذا، يا صديقتي العزيزة، يعود فيدمرني، لأنني أشعر أنك كنت معذبة، ولا زلت معذبة. وهذا يحرمني راحة البال» وبكى.

«هيثم، يا حبيبي، أعذرني. أنت تعلم أنني لم أغيّر طريقتي في الكلام. أنا ما أنا عليه، وما عهدتني... نعم، كنت أشعر أن مستقبلي لن يكون مشرقاً، لأنني لم أستطع الاحتفاظ برجلين في آن واحد. عندما وقعت في حبك انتهت رغبتي في زوجي، مع أن زوجي كان إنساناً ممتازاً أيضاً. توقفت عن النوم معه. وربما كان هذا سبب المشكلة التي حصلت بيني وبينه. مع ذلك، كان يحبني أول الأمر، لأنه كان يعتبرني أجمل امرأة في حياته. ثم كانت حاجته الجسدية إليّ سبباً في تشنجه تجاهي... أنا أعترف

Tele: @Arab_Books

بأنني ظلمته، وكنت قاسية معه. وقبل ذلك كانت رغبتي فيه قد فترت بعد ولادة ابني».

«ناديا، أنتِ كنتِ صيغة مختلفة عن معظم النساء».

«نعم، أنا امرأة غريبة الأطوار، كما تعلم، وكما كنت تنعتني. أنا لا أحب أن أكون امرأة كسائر النساء. وعندما دخلت أنت عالمي استطعت أن أمثل الدور الذي كنت أريده. استطعت أن أكون المرأة التي كنت أريد أن أكونها... وفجأة تفجرت عندي طاقات كانت هامدة أو كامنة. فجأة، أصبحت امرأة أخرى. أنا لم أكن كذلك تماماً قبل أن أتعرف بك. لماذا أصبحت أكثر «تمرداً»، لست أدري. ربما كان لشخصيتك دور في ذلك. أو ربما لأنك شيء آخر... شخص آخر خارج الروتين، والاعتيادية normality... أو ربما ربحتني بموهبتك الفنية...».

قاطعها: «لكنك لم تكوني تؤمنين بموهبتي الفنية، ووصفتني بأنني فاشل، ألا تذكرين؟».

«هراء... كان ذلك عندما كنت أشعر أنني سأخسرك... كنت أريد أن أؤذيك لأنك كنت ستتخلى عني، بعد أن ضحيت أنا بكل شيء من أجلك».

«لكنني، أنا الآخر، خسرت كل شيء بعد أن خسرتك».

«لكنك تعيش مرتاحاً مع زوجتك، كما قلت».

«هذه ليست حياة، يا ناديا... وصدقيني، حتى الرسم لم يعد له رونقه بعدك».

Tele: @Arab_Books

«لماذا، هيثم؟ أنا أعلم أنك لم تقدم شيئاً آخر على فنك، كنت أشعر بذلك».

قال: «ربما كان هذا لأنني كنت واثقاً من حبك لي».

أطلقت ناديا حسرة، وقالت: «نعم، بالضبط، لأنني كنت دائماً المرأة التي هناك. وكنتَ تعلم أنني أصبحت متيمة بك، رغم كل شيء... وربما لأجل هذا لم تفكر في أن تعرّض وضعك العائلي الى الاهتزاز».

«ها أنتِ تذكّرينني بما جاء في رسالتك، يا ناديا، وتجعلينني أشعر بعذاب ضمير موجع، وبمسؤوليتي تجاهك في خسارة زوجك، ذلك الإنسان الرائع».

«صحيح أنني خسرت زوجي، وصحيح أنك مسؤول جزئياً عن ذلك، لكنك حققت لي سعادة لم يحققها لي زوجي، ولا أي رجل آخر. كنتَ أنت كل شيء بالنسبة لي... كل شيء، حتى ابني كنت أتركه عند الخادمات، عندما أسافر إليك، وما أكثر سفراتي إليك. قال لي فيما بعد إنني كنت أهمله، وإنه لم يكن يريد أن يبقى في عناية الخادمات، اللواتي لم يكن يرتاح إلى روائحهن. لكن سفراتي إليك كانت أسعد مشاوير حياتي... هل أنسى نهر الدانوب، وشارع ڤاتسي (أعني ڤاتسي أوتسا)؛ والمطاعم كلها؛ ومقهى (غيربو) الذي يقدم كعكة البوغاتسا اللذيذة (مع القهوة، أو الكاكاو الساخن الذي أفضله)؛ وفندق (بيكا)، الذي كنا نستمع في جناح المقهى فيه إلى عزف السيدة

Tele: @Arab_Books

العجوز على البيانو، ونشرب الكابوتشينو، مع ألذ أصناف الكيك؛ وفندق Forum، الذي كنا نتناول فيه كعكة (البريوش) مع القهوة الفاخرة. هذا في النهار، أما في المساء فصرنا نذهب فيما بعد إلى فندق Penta، ألا تذكر؟ وكنا نفضل الجلوس في الشرفة الداخلية، في مدخل الفندق، مقابل كاونتر الاستقبال. وكانت وجبتنا المفضلة صدر الديك الرومي مع الرز والبزاليا... هيثم، أنا لا أنسى ذلك كله.. ثم هناك أحاديثك الساحرة عن كل شيء... كل شيء... عن الحاضر، والماضي، عن الفن، والأدب، والموسيقى، والسياسة... كل شيء. وكنتُ أقول لك لماذا لا تكتب ذلك، يا هيثم؟ وكنت تقول: أنتِ قرائي، وهذا يكفيني... وسفراتنا إلى الجزر اليونانية، وإلى ساردينيا، عدا عن لقاءاتنا في بلجيكا، وهولندة... كانت تلك أياماً فردوسية، يا هيثم».

«نعم، يا حبيبتي، وهذا هو سر شقائنا الآن، لأننا لا نستطيع استعادتها».

«هل تذكر أحاديثك عن فيزياء وميتافيزياء الزمن؟ لكن الزمن لم يكن هاجسنا يومذاك. ولم نكن نبالي بأي شيء آخر. كنا، أنت وأنا، محور الوجود... على أية حال، أنا سعيدة جداً لأنك عدت إليّ في إطار ما. وفي هذا سلوى لي، يا هيثم».

أثارت ناديا بهذا الكلام أشجانه، وزادته كآبة. لكنه سيطر على دموعه، وقال: «ناديا، يا عزيزتي، لا أريد أن آخذ المزيد من

Tele: @Arab_Books

وقتك. سأتصل بك باستمرار، وأفكر أيضاً في أن ألتقيك. لكن هذا سيتطلب استئذان أميرة. هل يسوؤك أن أعترف بذلك؟».

«لا، هيثم، لقد تغيرت. وأنا أقدّر وضعك، لأنك لا تريد أن تسمم حياتك مع أميرة. أليس كذلك؟».

«هذا صحيح، يا عزيزتي. لكنني لن أجد راحتي أيضاً في الابتعاد عنك».

«هيثم، يا عزيزي، أنا دائماً تلك المرأة التي هناك. ستجدني دائماً رهن إشارتك. لكنني أرجو أن تعلم، لا أريد أن أبقى بانتظار تلفون منك، في حين لا يحق لي أن أتلفن إليك... لقد عذبتني بما فيه الكفاية في الماضي عندما كانت شقتك تخلو من تلفون طوال تلك السنوات. صحيح أنك كنت تتصل بي في كثير من الأحيان من التلفونات العمومية، لكنك كنت تنقطع عني أحياناً، لأي سبب. وكنت أنا أعيش أياماً من القلق، يا هيثم، إلى أن اتفقنا على أن أتلفن لصديقك سليم، فكان يتعنّى إليك ليوصل إليك رسالتي، فتتصل بي على الفور. أما الآن، فأنت تملك تلفوناً، ومن حقي أن أتصل بك، إذا أردت أن نستأنف صلتنا. فماذا تقول؟».

قال هيثم: «ناديا، يا عزيزتي، أنا أتفهم موقفك جيداً. وأنا آسف لكل العقبات والصعوبات التي كنت تواجهينها. لكنك بطلبك هذا ستسممين حياتي مع أميرة. فإذا كنتِ مصرة على ذلك، فأنا على استعداد لأن ألبي طلبك. لكن هذا قد يؤزم

Tele: @Arab_Books

العلاقة بيني وبين أميرة كثيراً. فهل أنت على استعداد لتقبل هذه النتيجة؟».

«طبعاً، لا، هيثم. أنا لم أضطرك في عز علاقتنا على اتخاذ مثل هذه الخطوة، فكيف الآن؟... طيب، ستجدني، يا عزيزي، دائماً تلك المرأة التي هناك، كما كنتُ، وكما كنت تعاملني. وهذه المرة، سأبكي أنا بدلاً منك». وسمع بكاءها، فعادت إليه كآبته، هذه المرة على نحو أشد. ولم يسيطر على دموعه إلا بصعوبة. ثم قال لها: «ناديا، يا عزيزتي، كنت أعلم أن هناك خللاً في علاقتنا، لأننا كلينا كنا متزوجين. فهل كان وضعنا يمكن أن يكون أفضل لو لم يكن كل منا متزوجاً؟».

«لا أدري، هيثم، أو أشك... فكوني متزوجة لم يمنعني من أن أحبك بجنون، مع علمي بأنك متزوج، أو ربما لأنك متزوج، وما هو شعورك أنت؟».

«نفس الشيء، ناديا».

في ختام المكالمة، أكد هيثم أنه سيتصل بها باستمرار، وسيحاول أن يلتقيها من كل بد. فأسعدها ذلك، وشكرته على المكالمة.

Tele: @Arab_Books

II

في العام ١٩٨٣، تلقى هيثم دعوة من الصديقين نزار أكرم وزوجته خولة البحراني، المقيمين يومذاك في لندن، ليحل عندهما ضيفاً لمدة شهرين. كان نزار وخولة صديقين مقربين جداً لهيثم وزوجته أميرة. تعارفا إلى بعضهما في بيت هيثم، وتمت الخطوات الأولى بشأن اقترانهما في منزله أيضاً. ثم أصبحا من الثلة المقربة لهيثم وأميرة. ولم تنقطع أخبارهما عن هيثم بعد سفره إلى بودابست، ورحيلهما إلى لندن. ومن لندن كتبا إليه يعربان عن سعادتهما في استضافته في شقتهما، لأنه بحضوره «سيضفي على حياتهما بهجة وسروراً». فلم يتردد هيثم في الاستجابة إلى هذه الدعوة الكريمة. وتوجه إلى لندن فور إنجاز معاملات السفر. وفي لندن أنزلاه في غرفة مستقلة بحمامها ومرافقها، في شقتهما الواسعة، في الطابق الثالث من عمارة تقع في بداية شارع (كوينزوَي) من جهة (بيزووتر).

كان مضيفاه في بحبوحة من العيش: نزار كان يعمل في شركة يملكها عراقي، صديق العائلة، من أصحاب الملايين (بالمئات)؛ وخولة تنتمي إلى عائلة ثرية جداً (إخوتها من أصحاب الملايين،

Tele: @Arab_Books

ربما بالعشرات، أو أكثر)، وهي لها حصة من المصالح التي يديرها الأخوة. فكان هيثم ضيفاً مدللاً جداً. لم يلق في حياته كلها معاملة أكثر لطفاً وسخاء كالتي لقيها من صديقيه. ومن مظاهر اهتمامهما به، إن خولة اقترحت عليه أن يطلب ما يشتهي من الوجبات لتُعدّها له كل يوم، طوال مدة إقامته عندهما، فضلاً عن الدعوات في المطاعم. وكان نزار يأخذ على عاتقه إعداد مائدة عامرة بألوان المزة مساء كل يوم.

في أحد أيام إقامته في كوينزوي، أخبرته خولة بأن صديقة لها، تُدعى ناديا البياتي، ستزورها. وكان ذلك على دعوة عشاء. وأخبرته أيضاً بأن ناديا كانت زميلتها في الجامعة، في ولاية فلوريدا. وفي الموعد المحدد وافتهم ناديا بحضورها. كانت هذه زيارتها الثانية لزميلتها وصديقتها خولة، قادمة من بروكسل. وفي الزيارتين جاءت للترويح عن نفسها من جو العزلة القاتل الذي تعيشه في بروكسل.

كانت ناديا تعيش حالة من البحث عن هُوية، بعد أن اضطُر أبوها، العسكري المتقدم في العراق، على الانفصال عن أمها الأميركية، تقيّداً بالقوانين الجديدة التي تمنع العسكريين والدبلوماسيين من الزواج بأجنبيات. فتركت العراق مع شقيقتها وأمها إلى فلوريدا منذ طفولتها. وظلت دائمة التطلع إلى هوية أكثر التصاقاً بجذور الطفولة، حتى بعد زواجها من كارل، الموظف الذي تقدم كثيراً في عمله في فرع شركة (IBM)

Tele: @Arab_Books

الأميركية في بروكسل؛ وهو بلجيكي من الجالية الفلمنكية. كانت ناديا تشعر بأنها نبتة غريبة في بيت الزوجية، في جنوب بروكسل، وهو بيت كبير كانت تضيع فيه، هي وابنها، بعد أن يذهب زوجها إلى العمل. كان سكون هذا البيت الواسع، بالنسبة لعائلة صغيرة، وصمت الحي المتطرف في بروكسل، يورثان عندها إحساساً بالضيق والكآبة. فكانت سفراتها إلى الخارج، لا سيما بريطانيا، ولقاءاتها بزميلتها، منذ أيام الدراسة الجامعية، خولة البحراني، تحقق لها توازناً نفسياً وإحساساً بضرب من الانتماء، لأن خولة عراقية أيضاً، وتوفر لها الأجواء التي تفتقدها ناديا، بما في ذلك ألوان الأطعمة العراقية، والطقوس والتقاليد العراقية.

فور دخولها الشقة، أحس هيثم أن أمامه سيدة من طراز خاص، بدا له أرستقراطياً في سيمائه. وكانت أوروبية الملامح في كل شيء. دخلت وهي تحاول التغلب على خجلها، لأنها تعلم أن هناك ضيفاً آخر، غريباً. لكن خولة استقبلتها بالقبل والترحيب بها على أحسن ما يكون، وكأنها شقيقتها العزيزة. ثم قامت بتعريف كل من ناديا وهيثم بالآخر. قالت: «ناديا البياتي، زميلة جامعية منذ أيام فلوريدا، وهي أعزّ وأحب صديقاتي إليّ، وتُدخل السرور إلينا كلما زارتنا هنا، لأن حضورها هنا يشيع عندنا البهجة والسرور، ويستنهض ذكريات عزيزة علينا كلينا...».

ثم قالت: «وهيثم البغدادي، صديقنا العزيز جداً، هو وزوجته أميرة، منذ أيام بغداد. وهو فنان يجيد رسم البورتريه على أروع

Tele: @Arab_Books

ما يكون، بطريقته الخاصة في التعبير، واستعمال الألوان الغريبة!. . . وقد هرب من العراق لأنه يخشى أن يُطلب منه ذات يوم أن يرسم صورة الحاكم بأمر الله!» وأضافت ضاحكة «وأنا هنا أدلله كل يوم، وأقدم له ما لذ وطاب، بأمل أن يؤثر فيه الزاد والملح، فيتلطف عليّ ببورتريه!».

فقال هيثم: «سيكون ذلك من دواعي سروري».

«طيب» قالت خولة «ضمنّا اللوحة، إذن».

«من كل بد. هذا أقل ما يمكن أن أفعله من أجلك، يا عزيزتي خولة، أنت My Fair Lady».

أسعدت خولة بهذا الإطراء، وقالت لناديا: «أنا أحب هذا الرجل. ولو لم يكن متزوجاً من صديقتنا العزيزة أميرة، لأوقعته في شراكي!».

وأضافت «فأنا كنت أعرفه قبل أن أتعرف بنزار بزمن».

كانت ناديا هادئة وخجولاً، على عكس خولة، المنفتحة كثيراً في حديثها مع الآخرين. لكنها شعرت بالارتياح إلى هذا الرجل الذي تتحدث عنه خولة بكل هذا الإطراء والإعجاب. وعلى مائدة الشراب والمزة دارت بين الربوع أحاديث شتى، ودية وغير متكلفة. وأحب هيثم أن يُجري تغييراً على عادته في شرب الويسكي (وهو من طراز Chivas Regal)، الذي يقدمه له نزار كل يوم، بعد أن أحبت ناديا شرب النبيذ الأحمر. وأعلن عن رغبته

Tele: @Arab_Books

أيضاً في شرب النبيذ. وصار هو يملأ كأس ناديا، كلما أوشك أن يفرغ. ولاحظ أنها شريبة نبيذ بغير حساب تقريباً. كما شعرت ناديا أنها تُمضي ليلة سعيدة جداً مع هذه الصحبة الطيبة. وفي ختام الجلسة، أعلنت عن رغبتها في دعوة الجميع إلى مطعم نمساوي، قريب من شارع أوكسفورد. إلا أن خولة اعترضت عليها، وأصرت أن تكون هي ونزار صاحبتي الدعوة، ما دامت ناديا، وهيثم، ضيفين في لندن.

لم تكن لدى نزار وخولة سيارة خاصة. لم يشعرا بالحاجة إليها، لأن تنقلاتهما كانت تتم بواسطة سيارات الأجرة. وفي الموعد المحدد لدعوة العشاء في المطعم النمساوي، تحركوا جميعهم من كوينزوي. كانت ناديا مغرمة بوجبة (الشنتسل) النمساوية، وبكعكة التفاح النمساوية أيضاً، لذلك اقترحت هذا المطعم (وفيه عازف على الكمان أيضاً). وكان اختيارها ينم عن ذوق رفيع.

في هذا المطعم جلسوا أمام مائدة رباعية: نزار أمام خولة؛ وهيثم أمام ناديا. وكانت ناديا هي الناطقة باسمهم، لأنها تعرف هذا المطعم جيداً؛ وصاحبه والنُدل يعرفونها، وبعد أن فرغوا من الطلبات، وبعد أن جيء بها، تقدم عازف الكمان من ناديا، وسألها: «من هو الضيف في هذه الأمسية؟» فنقلت بصرها بين الأشخاص الثلاثة الآخرين، ثم قالت: «كلهم!» لكن العازف توجه بالكلام إلى هيثم، وسأله إن كان يود أن يختار لحناً معيناً.

Tele: @Arab_Books

فخطرت في ذهن هيثم مباشرة مقطوعة (إلى إليز) فبيتهوفن. ولدهشته أن العازف لم يعرف اسم المقطوعة، أو لعله لم يميز نطقها جيداً، رغم أنه نمساوي. لكنه طلب من هيثم أن يصفّر اللجن، فصفّره. وعند ذاك عرف المقطوعة، وقام بعزفها. فقالت ناديا: «أنا أعرف هذا اللحن. إنه عذب جداً». وأكد ذلك نزار أيضاً، الذي كان من محبي الموسيقى الكلاسيكية.

ثم سألت ناديا هيثم عن بودابست، وهل هي مدينة جميلة. فأكد أنه لا يزال يذكر نعتها في كتاب الجغرافيا للصف الخامس الابتدائي في العراق، بأنها عروس الدانوب. فقالت: «لعلّي أفكر في زيارتها». ثم قال مازحاً: «سيكون من دواعي سروري أن أقوم بدور الدليل لسفرتك السياحية!».

«شكراً. سأفكر حقاً في زيارتها».

«وسيسعدني أن أقوم بمهمة الضيافة».

«شكراً».

غمزته خولة، وقالت: «ماذا تتمنى أكثر من ذلك! لكنني أحذّرك من أن يشطح ذهنك كثيراً، فناديا تقود الرجال إلى الشط وتعود بهم عطشى، كما يقول المثل عندنا».

هنا ضحك نزار ضحكته المجلجلة، المعروف بها، وقال: «أنا شخصياً، يسعدني أن تقودني ناديا إلى الشط، وتعود بي عطشان!».

Tele: @Arab_Books

واستمر الحديث على هذا المنوال، ثم غادروا المطعم، وأوصلوا ناديا إلى الفندق الذي تقيم فيه.

وتوطدت المعرفة أكثر بين هيثم وناديا، بعد أن حضرا دعوة تحسين البحراني، شقيق خولة، الذي يعرفه هيثم جيداً منذ إقامة عائلة تحسين وخولة، في الطفولة، في منزل الشاعر الشعبي الملا عبود الكرخي، الذي لم يكن بعيداً عن منزل أهل هيثم. لقد اغتنم تحسين وجود هيثم، وناديا، في لندن، وأحب أن يقوم بضيافتهما، بصحبة شقيقته خولة، وزوجها نزار. دعاهم، أول الأمر، إلى مطعم (زافرانو) الإيطالي، الباذخ، قرب محطة سلون. كان تحسين بصحبة زوجته التركية الشقراء ألمز، التي تلفظ الخاء هاءً، وتنطق اسم خولة هكذا: هَوْلة، مما دعا هيثم إلى أن يحذرها من أن تلفظها «هُولة» فأضحك الجميع، عدا ألمز، التي شرح لها المعنى بعد ذلك.

واقترح تحسين، بعد العشاء في هذا المطعم، أن يذهبوا إلى كازينو قريبة ليلعبوا شوطاً من الورق، ويشربوا الشمبانيا، فلقي اقتراحه منتهى الاستجابة. وهناك وزع تحسين على الجميع مبلغاً من المال ليلعبوا به، ما داموا ضيوفه. فساغت لهيثم هذه السجية الارستقراطية، وزادته إحساساً بالسعادة في ضيافة هذه العائلة.

كانت الدعوة الثانية على غداء في مطعم إيراني في منعطف شارع بيزووتر، يملكه جنرال إيراني فُصل من الجيش بعد انتصار ثورة الخميني. وكان الجنرال، هو وزوجته يديران المطعم، الذي

Tele: @Arab_Books

يقدم الخبز المخبوز في تنور المطعم على الطريقة العراقية (والفارسية)، مع الكباب. وكانت ناديا تحب ذلك كثيراً. ولم يكن ذلك السبب وحده الذي دعيت من أجله، فقد أكد لها تحسين البحراني أنه دعا أيضاً سيدين عراقيين، أحدهما عضو سابق في القيادة القطرية لحزب البعث في العراق، وله معرفة وثيقة بأبيها العسكري السيد مصطفى البياتي. أما الضيف الآخر، فهو شقيق لوزير داخلية عراقي سابق أيضاً. وكان كل من العضو القيادي السابق في حزب البعث، وهيثم، على معرفة بالآخر (عن بُعد). كان هذا القيادي السابق في حزب البعث قد أسعده أن يلتقي بابنة صديقه العسكري، مصطفى البياتي، وبهيثم، الذي كان هو على علم جيد بسمعته الفنية، وبأنه كان من ضحايا انقلابهم في ١٩٦٣، يوم كان هو من عناصره القيادية. لكنه الآن تنحى عن المراكز الوظيفية، وحتى عن النشاط الحزبي، وإن كان لا يزال يؤمن بمبادىء الحزب.

كان هذا اللقاء ظريفاً، بين هذه المجموعة من الأشخاص المتباينة أهواؤهم ومعتقداتهم السياسية، في مطعم جنرال إيراني من المحسوبين على نظام الشاه. (ولم يكن نزار حاضراً، لأن اللقاء كان على غداء، ونزار يداوم في عمله في النهار). في البدء حيّا العضو القيادي السابق في حزب البعث ناديا بحرارة، مؤكداً لها علاقته الحميمة بأبيها مصطفى البياتي. وتحدث عن أبيها، فأضاف الكثير من المعلومات التي تجهلها ناديا عنه. وعلمت أنه

Tele: @Arab_Books

الآن بخير، وهو زاهد أصلاً في السلك العسكري. وقد جاء إبعاده عن الجيش رحمة له، وإن كان السبب في انفصاله عن عائلته. وأكد لناديا بأنه سينقل لأبيها أخبار هذا اللقاء. وقد أعرب عن امتنانه للسيد تحسين البحراني، الذي أتاح له الفرصة لأن يلتقي بالسيدة ناديا، والسيد هيثم. وقال مخاطباً الأخير: «صحيح، أستاذ هيثم، ما يشاع من أنك غادرت العراق تهرباً من رسم صورة للرئيس؟».

وأجابه هيثم، وهو غير مرتاح لهذه الشائعة: «لا، ليس صحيحاً بالضبط. في واقع الحال، أنا لم أكلَّف بذلك».

«على كل حال، أنت ضيعت فرصة أن تكرَّم من السيد الرئيس!».

ثم إن خولة البحراني، عقبت قائلة: «مستحيل... أصلاً لا يمكن أن أتصور هيثم ينزلق إلى هذا المنزلق. لهذا أعتقد أنه تهرب استباقاً لما قد يتعرض إليه».

«بالفعل»، قال هيثم «كنت أرتعب من مجرد احتمال أن أتعرض إلى مثل هذا الامتحان الصعب».

ثم دار الحديث عن الحرب العراقية ـ الإيرانية، فأعرب تحسين البحراني عن إعجابه بالخميني، واعتبر الحرب ضد نظامه جاءت في خدمة الغرب، وبالذات أميركا، التي كانت ثورة الخميني ضد مصالحها.

Tele: @Arab_Books

لكن شقيق وزير الداخلية السابق عقب قائلاً: «ولماذا لا ننظر إلى الأسباب الحقيقية التي دعت العراق إلى محاربة إيران؟».

سأله تحسين البحراني: «ما هي هذه الأسباب؟».

«استعادة حقوق العراق المهضومة بعد ضم أراضٍ استراتيجية على شط العرب في عربستان».

«ربما كان هذا صحيحاً» قال هيثم «لكنني أتساءل: لماذا تنازل الحكام العراقيون في عهد الشاه عن هذه الأراضي، أو عن المزيد منها، بعد الترسيم السابق للحدود بين البلدين الذي لم يكن في صالح العراق، وعادوا للمطالبة بها بعد سقوط الشاه؟».

ثم أردف: «أنا أعتقد أن موضوع الحدود لم يكن إلا سبباً ظاهرياً للحرب».

سأله شقيق وزير الداخلية السابق: «ما هو إذن، السبب في رأيك؟».

ابتسم هيثم، وقال: «أنا أستميح الأستاذ تحسين عذراً في شكي بكل ما يجري في المنطقة، بما في ذلك ثورة الخميني على الشاه».

سأله تحسين البحراني: «ماذا تقصد؟».

قال هيثم: «أنا لست محللاً استراتيجياً، ولا أستطيع أن أقدم أدلة دامغة على هواجسي. لكنني أتساءل هل من باب المصادفات أن يأتي صدام حسين إلى سدة الرئاسة في نفس السنة التي

Tele: @Arab_Books

أسقطت فيها ثورة الخميني الشاه، ثم تقع الحرب بين البلدين بعد ذلك بعام؟».

«أحسنت». قال العضو القيادي السابق في حزب البعث «أنا أعتقد أن هذا تساؤل في محله».

«كيف في محله؟» تساءل تحسين البحراني.

قال هيثم: «كيف؟ يبدو أن هناك، ربما من وراء الستار، من يريد أن تقوم هذه الحرب بين العراق وإيران من كل بد. وبما أن قيام مثل هذه الحرب بين البلدين في ظل حكومة الشاه غير ممكن، أولاً لأن الحكومة العراقية عقدت مع حكومة الشاه اتفاقية سلام لقاء تعهد حكومة الشاه بعدم دعم الثورة الكردية؛ وثانياً لأن توازن القوى بين الجيشين العراقي والإيراني كان دائماً، في عهد الشاه، في صالح الجيش الإيراني. لذلك كانت هذه الحرب ممكنة إذا حُلَّ الجيش الإيراني، كما حصل بالفعل بعد ثورة الخميني، وأصبح هناك توازن نسبي بين القوتين العسكريتين في العراق وإيران».

«أحسنت». قال القيادي السابق في حزب البعث «هذا عين الصواب».

وعقبت خولة البحراني مخاطبة هيثم: «هذا وأنت تدّعي بأنك لست محللاً استراتيجياً... يبدو لي إن هذا تحليل منطقي للأحداث».

Tele: @Arab_Books

فقال أخوها تحسين موجهاً كلامه إلى هيثم أيضاً: «لكنك وضعت، في تحليلك هذا، صدام، والخميني، في سلة واحدة. وهذا تجنّ على الخميني كأقل ما يقال».

وأجاب هيثم: «على أية حال، أنا لا أصر على هذا الرأي، إذا كنت تراه غير وارد».

«نعم، يا جارنا العزيز». قال تحسين البحراني «أنا أراه غير وارد، ولم أكن أتصور أن جاري القديم الذي كنا نلعب معه لعبة الكعاب في الصالحية، يوم استأجرنا بيت الملا عبود الكرخي، وجاورناه، سيضع الخميني وصدام في سلة واحدة!».

وضحك الجميع. ثم قال تحسين موجهاً كلامه إلى هيثم أيضاً:

«والآن، يا جاري القديم العزيز لي طلب منك».

فقال هيثم: «أنا بالخدمة، أبا عادل. أي طلب تأمر».

«شكراً جزيلاً. لا يأمر عليك آمر... طلبي فني... أريد لوحة ترسم فيها صورة ابني عادل وزوجته في بدلة الزفاف».

«صار. أنا على أتم الاستعداد لتنفيذ طلبك. فقط زودني بصورة فوتوغرافية لهما في وضعية الزفاف، والباقي عليّ».

«شكراً جزيلاً. ستأتيك الصورة عن طريق خولة».

وقبل أن يفترقوا، زوّد تحسين البحراني كلاً من المدعوين بصينية من الورق المقوى عليها زهاء العشرين من أسياخ الكباب مع ملحقاته من البصل والطماطم المشويين.

Tele: @Arab_Books

وفي طريق عودة الثالوث: خولة، ونادیا، وهيثم، قالت نادیا: «أستاذ هيثم، كنتَ مقنعاً في نقاشك مع الجماعة. وأنا أتفق معك في تحليلك، مع أنني لا أفهم كثيراً في مواضيع السياسة».

قال: «لا تحزني، الكل لا يفهمون كثيراً في السياسة!».

فعلقت خولة: «آخ منك، هيثم». ربما إدراكاً منها بأنه كان يقصد أخاها تحسين البحراني، أيضاً.

وعندما وصلت سيارة الأجرة الفندق الذي تنزل فيه نادیا، اقترحت أن تدعوهما على شرب القهوة في بهو الفندق، فاستجابا لها. وبعد أن اتخذوا مقاعدهم، أحبت نادیا أن تدخل في حديث مع هيثم، الذي أثار فضولها واهتمامها.

قالت: «أستاذ هيثم، أنا أحب الأيقونات كثيراً. شاهدت في كنائس اليونان أيقونات جميلة، وكنت أتمنى لو أقتني لوحة أو لوحتين منها».

«هل تعلمين؟» قال هيثم «أنا فوّتت فرصة اقتناء عدد من أجمل الأيقونات، كانت معروضة في مخزن لبيع الأعمال الفنية في بودابست... أنا أيضاً أحب الأيقونات. وكلما أذكر ذلك، أشعر بخسارة كبيرة، لأنني لم أستطع شراء ولو لوحة واحدة منها. كان سعر الواحدة أربعمئة دولار فقط».

«صحيح؟ أربعمئة دولار؟».

«نعم، وأعترف أنها كانت لوحات ممتازة».

Tele: @Arab_Books

قالت: «لماذا فوتَتَ فرصة شرائها، أستاذ؟».

ابتسم، وقال: «كنت مفلساً».

فعلقت خولة: «على بختك، هيثم. كان عليك أن تتصل بنا، لماذا لم تفكر في ذلك؟».

قال هشام: «لم أفكر في ذلك، لأنني كنت أريد أن أشتري هذه اللوحات من مالي!».

«ولوّ!» قالت خولة «أنا أحتج لأنك تعتبرنا غرباء».

«لا، أنا لا أعتبركم غرباء. . . في واقع الحال، لم أفكر في وقتها في أي مصدر آخر، أو أي جيب آخر، غير جيبي».

ثم سألته ناديا: «وماذا حل باللوحات، أستاذ؟ هل لا زالت معروضة؟».

«لا، بيعت، على ما أعتقد».

قالت: «خسارة».

«نعم، لأنها كانت قديمة، وهذا يضاعف قيمتها والإحساس بالخسارة. أنا مثلاً، أستطيع أن أرسم أيقونات. لكن ما أرسمه لن تكون به قيمة مثل قيمة تلك اللوحات».

قالت ناديا بلهفة: «صحيح؟ إذن بودي. . .» وضحكت بارتباك، ثم تراجعت عما كانت تود قوله.

لكن خولة شجعتها: «لا تترددي، ناديا، قولي ما تودين قوله، فهيثم صديق عزيز».

Tele: @Arab_Books

«الحقيقة»، قالت ناديا «إنني كنت أود أن أقول إنه يسعدني أن أرى كيف ترسم أيقونة».

«لا أبسط من ذلك!» قال هيثم «لا سيما صورة مريم العذراء بالفوطة».

فقالت خولة: «إذن، ارسم لها واحدة».

«بكل سرور، لكنني أعود فأقول إنها لن تكون ذات قيمة».

سألته خولة: «لماذا؟».

«لأنها ستكون مثل أية لوحة غير أصيلة، رُسمت تقليداً للوحة معروفة، هل أدركت مغزى كلامي؟».

ثم قال لناديا: «يبدو لي أنك تفضلين الفن الكلاسيكي؟».

«ليس بالضرورة، أستاذ. أنا أحب الأيقونات لسبب غير واضح. لكنني في واقع الحال أفضل اللوحات الانطباعية».

وأكدت خولة: «كلنا نحب الانطباعيين... اللوحات الانطباعية تبعث البهجة في النفس».

«نعم،» قال هيثم «وربما لأجل هذا يحب معظم الناس اللوحات الانطباعية... وأنا أذكر أن أحدهم قال: العين الانطباعية هي، باختصار، أكثر العيون تطوراً في حياة البشر كلها».

سألته ناديا: «من قال هذا؟».

«لا أتذكره».

Tele: @Arab_Books

«أعتقد أنه محق تماماً».

«ربما. لكن هذا لا يدعوني، أنا مثلاً، إلى أن أفضلها على بقية الأعمال الفنية، مع كل إعجابي بها».

سألته: «ماذا تفضل، أستاذ؟».

ضحك، وقال: «أنا معجب بفنان معاصر، أكثر من أي فنان آخر، لسبب قد لا يختلف عن إعجابك بالأيقونات».

«من هو؟».

«پول ديلڤو Paul Delvaux».

هتفت بسرور: «پول ديلڤو؟... تعلم أنه بلجيكي، أستاذ».

«نعم، أعلم ذلك».

«أنا أتفق معك تماماً. إنه فنان ساحر بطريقة تعامله مع شخوص لوحاته، وكل الأشياء الأخرى...».

«هذا الهاجس المتكرر في كل لوحاته تقريباً، كما تلاحظين، مذهل، رغم تكراره... أعني ذهول أبطاله، أو حضورهم الغائب. إنهم موجودون أمامنا في لوحاته، لكنهم غائبون أيضاً... ماذا أقول؟ إنهم في غير أماكنهم، فيزيقياً وميتافيزيقياً، إذا جاز القول».

تساءلت خولة: «ماذا تقصد، هيثم؟».

«حضورهم في غير الأماكن التي ينبغي أن يكونوا فيها، كما في الأحلام؛ وذهولهم أيضاً، وكأنهم ليسوا في هذا العالم».

Tele: @Arab_Books

«أريد أن أرى لوحاته».

«زوريني.» قالت ناديا «وسأريك لوحاته.».

«سأزورك بالتأكيد، لكن هل هناك كتب أو ألبومات عن لوحاته.».

«نعم،» قال هيثم «سأحاول أن أدبر لك شيئاً من ذلك.».

«شكراً.»

ثم قال هيثم: «وأنا سيسعدني جداً أن أزور بلجيكا من أجل پول ديلڤو فقط.».

فقالت خولة: پول ديلڤو وحده؟!»

ابتسم هيثم، وقال: «طبعاً، سيسعدني جداً أن ألتقي بناديا أيضاً، لكنني أخشى أن أثقل عليها».

«على العكس، أستاذ.» قالت ناديا «أنا أصلاً أتمنى أن لا يكون هذا آخر لقاء بيننا... أنا سعيدة لأنني تعرفت عليك أستاذ هيثم... ثم إني أحب زيارة بودابست، كما ذكرت.».

«هذا يسعدني كثيراً، أيضاً».

«بالمناسبة،» قالت خولة «هيثم يجيد رسم الخيل أيضاً، خيله في غاية البراعة!».

«آ...» قالت ناديا «لكن لماذا الخيل؟»

قال هيثم: «لأنني تعلقت بها مذ كان أبي يصطحبني معه إلى محل سباق الخيل في مدينة المنصور ببغداد. وفي واقع الحال،

Tele: @Arab_Books

أنا كرهت الناس الذين كانوا يراهنون على الخيل، ويتصرفون كالأطفال والبلهاء أثناء ركض الخيل، ثم يرمون ما تعتمر به رؤوسهم على الأرض إعراباً عن خيبة أملهم عندما يخسر حصانهم الذي راهنوا عليه.. لكنني وقعت في حب الخيل!».

بعد عودة هيثم إلى بودابست، كتب رسالة إلى ناديا، على عنوانها في بروكسل، يعرب لها فيها عن سعادته بالتعرف عليها، مؤكداً أنه سيسعده أن يقوم باستضافتها في بودابست متى شاءت. ثم إجابته برسالة تشكره فيها على رسالته ودعوته... ومرت شهور لم يكاتبها في أثنائها، ولم يسمع منها أي خبر. ثم وصله بعد هذا الانقطاع خطاب من ناديا، تخبره فيه بأنها قررت زيارة بودابست، وستحيطه علماً بموعد وصولها. وقبل الموعد بثلاثة أيام، أرسلت إليه برقية حول موعد وصول طائرتها، فاستقبلها في المطار، وتوجها إلى فندق (رويال) الذي حجزت فيه لليلة واحدة، لتبحث (يبحثا) بعد ذلك عن فندق آخر، لعدم وجود غرف شاغرة في هذا الفندق لأكثر من تلك الليلة. (صادف أن وفوداً كانت قادمة إلى بودابست في موعد وصولها).

في الليلة الأولى لوصول ناديا إلى بودابست، دعاها هيثم على سهرة عشاء في مطعم (برلين)، القريب من فندق رويال. وكانت سهرة حميمة، أجهزا في أثنائها على قنينة نبيذ أبيض، كانت ناديا قد شربت معظمها. وإذْ لاحظ هيثم أنها كانت ما تزال بها رغبة لشرب المزيد، طلب زجاجة أخرى، مع أنهما لم يشربا سوى

Tele: @Arab_Books

ربعها أو ثلثها. ثم أوصلها إلى فندق رويال؛ وهناك قدمت له ناديا زجاجة شامبانيا هدية، كانت قد اشترتها من السوق الحرة. وعاد هيثم إلى شقته على أن يوافيها بحضوره في نهار اليوم التالي، بعد أن يحجز لها غرفة في فندق آخر، كان يفضل أن يكون أقرب إلى مسكنه.

وافاها في اليوم التالي بحضوره، واستقلا سيارة أجرة إلى الفندق الجديد الذي حجز فيه هيثم غرفة، ويقع في القطاع الجبلي من بودابست ليس بعيداً من مسكنه. لكنهما في طريق الصعود، الحاد نسبياً، إلى موقع الفندق، واجها ضباباً كثيفاً، فأحسا كلاهما بأن هذا الفندق لا يصلح للنزول فيه. عند ذاك طلب هيثم من السائق أن يستدير بنسبة مئة وثمانين درجة، وقال لناديا: «أنا آسف جداً، يا عزيزتي ناديا، هل تحبين أن نعود إلى مركز المدينة لنبحث عن فندق آخر؟».

فقالت: «يبدو أن هذه المهمة أصبحت معقدة الآن، حيث يتعين علينا جرجرة حقيبتي من مكان إلى آخر... أنا أفضل الاستراحة الليلة في شقتك، ما دامت قريبة من هنا. هل هي قريبة بالفعل؟».

قال: «نعم».

«طيب، لنذهب إليها، ونستريح، ثم نفكر بعد ذلك ماذا نفعل».

وذكر هيثم عنوان شقته للسائق، وكانت معلقة في ركن جبلي

Tele: @Arab_Books

من بودابست. ولدى وصولهما الشقة، حمل هيثم حقيبة ناديا، ودخلا الشقة.

حدث هذا قبل عشرين عاماً، فهل كان الضباب حائلاً رحمانياً دون نزول ناديا في الفندق، واضطرارهما إلى اللجوء إلى شقته، أم أن هذه العلاقة كانت شيئاً «مكتوباً على الجبين» مذ استقلت ناديا الطائرة إلى بودابست؟ أغلب الظن أن القدر لعب دوراً في الجمع بينهما منذ لقائهما في لندن.

لدى وصول هيثم وناديا شقته، اعتذر لها، أولاً عن هذا البرنامج الذي لم يكن مخططاً له (وهو صادق في قوله)، وثانياً عن كون شقته متواضعة؛ إنما لحسن الحظ أنها تشتمل على غرفتين، يتم الدخول إلى إحداها من الغرفة الرئيسية. وأكد لناديا بأنه سينام في الغرفة الأخرى، الصغيرة (التي يوجد فيها سرير بائس عتيق). ثم يبحث لها عن فندق آخر في نهار اليوم التالي.

كان أول شيء لفت انتباه ناديا، اللوحات، حيث كانت اثنتان منها معلقتين على جدارين في الغرفة، والبقية مركونة قرب الباب المفضي إلى الغرفة الأخرى. وقد لفتت نظرها، بصورة خاصة، لوحة معلقة على الجدار الخلفي المواجه لشرفة الغرفة، وكانت فوق سرير نوم هيثم. فوقفت تتأملها، كانت صورة نصفية لامرأة أوروبية وسيمة المحيا، يتراوح عمرها بين الأربعين والخمسين. لم تكن لوحة كلاسيكية تماماً، بل فيها شيء من اللمسات الانطباعية. سألته ناديا:

Tele: @Arab_Books

«من هي صاحبة هذا الوجه؟».

«امرأة كنت أعرفها».

«ولماذا رسمتها؟»

«لأن وجهها فوتوجنيك Photogenic».

ثم أعدّ هيثم لهما قهوة، مع الكيك. فشعرت ناديا بلذة في تناول هذه القهوة مع الكيك المجري، الذي أكلته بشهية. وتطلعت من شرفة الشقة إلى الخارج، فأعجبها المنظر الفسيح الذي يطل على قطاع كبير من بودابست، بحكم ارتفاع الحي. وظلا يتطلعان من هذه الشرفة إلى كل تفاصيل المنظر الممتد تحتهما إلى مسافات بعيدة. وتسأله ناديا عن بعض المناطق اللافتة للنظر، فيحاول أن يجيبها إذا كان يعرف شيئاً عن هذه المواقع. وعندما خفضت ناديا بصرها إلى أسفل، لوّح لهما جيران هيثم الذين كانوا يلعبون كرة المنضدة تحتهما، في فسحة معدة لهذا الغرض. فرد هيثم وناديا لهم التحية. كانوا أربعة لاعبين، واثنين آخرين يتحدثان، وربما ينتظران دورهما. وقد لاحظت ناديا الطيبة والابتسامات مرتسمة على وجوههم، فقالت لهيثم: «ويبدو أن جيرانك طيبون».

«جداً. نحن هنا نعيش في مجمع سكني جميل وحميم في علاقاته. وأنا أعامل دائماً كضيف من قبلهم، حيث ادعى، هنا في هذه الفسحة على وجبة الغولاج المجرية والنبيذ في المناسبات. وستعاملين أنت بنفس الود والأريحية».

Tele: @Arab_Books

«ما أجمل ذلك. أنت لا تشعر هنا بالغربة».

«أبداً. وصارت هويتي معروفة في المنطقة كلها: الرسام العراقي، بعد أن شاهدوني أرسم أحياناً من الشرفة».

وظلا يتحدثان ساعات، وهما يشربان مزيداً من القهوة ويتناولان الشوكولاتة، حول مواضيع لم يعد هيثم يتذكرها، إلى أن استأذنها ليعدّ لهما وجبة عشاء. وفي أثناء ذلك استحمت ناديا، وشعرت بأن وجودها في هذه الشقة البسيطة، لكن الرومانسية في موقعها، مع هذا الرجل الذي بدا لها طيباً، وصادقاً، مخلصاً في أقواله وأفعاله، خير لها من الإقامة في فندق تفتقد فيه صحبة مريحة كهذه.

كان عشاؤهما متواضعاً، لأنه لم يخطط له. لكنه مع النبيذ المجري، ومع أحاديث هيثم الساحرة، بدا لناديا شيئاً فردوسياً. وكانت هي أيضاً تتحدث بكل ود عن كل ما يتعلق بعالمها. واستمرا في حديثهما حتى الواحدة بعد منتصف الليل. لكنهما الآن شعرا أن العلاقة بينهما أصبحت أكثر حميمية من ذي قبل. وكانا جالسين الآن أحدهما لصق الآخر على سرير هيثم العريض المعد لشخصين. ولا يذكر هيثم كيف احتوى كتف ناديا، وأطبق على شفتيها يقبلهما، وهي تستعذب قبلته بسعادة، واستغرقا في القبل والعناق عشرات الدقائق، ثم التحما في عناق جسدي طويل.

في صباح اليوم التالي تسلل هيثم بحذر إلى الحمام، لئلا

Tele: @Arab_Books

يوقظها، وحلق ذقنه، ثم استحم، وعاد إلى الغرفة محاذراً إحداث أي صوت، فألفاها ما تزال نائمة. فجلس على أحد الكراسي، وشغل نفسه بقراءة كتاب. ولم تستيقظ ناديا إلا بعد العاشرة والنصف. فرأته يقرأ في كتاب، وقد ارتدى الملابس «الرسمية». قال لها: «صباح الخير، يا حبيبتي».

«صباح الخير، هيثم. أنا آسفة، لأنني لم أنم كثيراً في الليل».

«ولا أنا. ولا مانع عندي من معاودة النوم قبل أو بعد الفطور».

«بعد الفطور، فأنا هنا تفتحت عندي شهية ذئب».

«طيب، سأُعدّ الفطور، وأجيء به إلى هنا، ما رأيك؟».

«شكراً، هيثم، أنت تدللني».

«لكنني أدلل ملكة، هبطت عليَّ من السماء».

«من بروكسل اللعينة!».

وأعدَّ الشاي، وجاء بالزبدة، والجبن، والحليب، وعسل الأكاسيا المجري الشهير، وبقطع الخبز التي قطعها بسكين الخبز، وبمحمصة الخبز الكهربائية، وهي من طراز بدائي جداً (ليس أوتوماتيكياً). فكان لكل شيء طعم آخر، لم تذق ناديا مثله في البلاد التي تعيش فيها، والتي تتنقل إليها... كل شيء، من الخبز، بنكهته الفلاحية الأصيلة، إلى الزبدة، والجبن، والعسل،

Tele: @Arab_Books

كان له طعم طبيعي مذهل. . . أكلت بجنون، وشكرته كثيراً على ذلك كله. ثم عادا إلى الفراش، وطلبت منه أن يحتضنها، وقالت: «أوه، هيثم، أنا سعيدة جداً، لحسن حظي أنني لم أنزل في فندق».

ولم يتركا السرير إلا بعد انتصاف النهار، ثم كان هو أول من استيقظ، هذه المرة بصخب، لكي يوقظها. وسحب اللحاف عنها، وقال: «هيا، وإلا أخرج بمفردي وأتركك هنا تناطحين الجدران!».

عند ذاك قفزت من على السرير بحيوية، وقالت: «هل تتركني أموت من الوحشة والخوف، يا عزيزي؟».

بعد أن استحمت، ارتديا ملابسهما، وخرجا. فشاهدت ناديا خطاً من الشجيرات أمامها، بورقها المدوّر الذي يشبه ورق الخبّاز. وسرّت عندما أخبرها بأنها شجيرات بندق. وقالت:

«أوه، يا إلهي، ما أجمل ذلك. هل أستطيع أن أقطف من ثمارها؟».

«تستطيعين».

«لكنني أخجل!».

«نعم، حسناً تفعلين باستدراكك، لأن هذه الأشجار لا يقطف ثمارها، هنا، غير الأطفال».

«لكنني أنا طفلة أيضاً، يا هيثم!».

Tele: @Arab_Books

«أنت طفلتي أنا، ولست طفلة في نظرهم!».

«اقطف لي منها، إذن».

وقطف لها كمية من البندق، الذي كانت حباته مغلفة بغلاف خارجي آخر، أخضر فاتح اللون. ولأنها لم تحبذ وضعها في حقيبتها اليدوية، عاد بها إلى الشقة ليحتفظ بها هناك.

وسألها إن كانت تفضل أن يستقلا الباص، أم ينزلا مشياً إلى البلد، وهي مسافة ليست قصيرة، لكنها كلها منحدرة، وخلاّبة في مناظرها. ففضلت المشي لكي تزداد إلفة وحميمية مع طريقه إلى البلد. ومنذ هذه اللحظة، أصبح كل معلم من معالم بودابست... كل شجرة، وصخرة، وبناية، وشارع، ومنعطف، وواسطة نقل، ومقهى، ومطعم، وجسر، إلى جانب الدانوب، وجزيرة مارغيت المذهلة، له حضور لا ينمحي من ذهنها.

وبدأ هيثم بإلقاء الدرس الأول على تلميذته ناديا، مبتدئاً بأسماء الأشجار، التي يصادفانها في الطريق: هذه شجرة حوْر؛ وتلك شجرة كستناء برية. وسألته: كيف عرفت أن هذه كستناء برية؟ وما الفرق بينها وبين الكستناء الصالح للأكل؟ فقال: يمكن معرفة الفرق بين الشجرتين من الأوراق، وغلاف الثمرة، وحتى الجذع. والفرق بين طعم الثمرتين هو أن حبة الكستناء البرية فيها مرارة... وبالمناسبة، هناك فرق آخر جوهري بين الشجرتين، هو أن أزهار الكستناء البرية بيضاء، أما السائغة فأزهارها وردية.

قالت: «جميل، كم بودي لو أنني تخصصت بعلم البستنة».

Tele: @Arab_Books

«وبودي أنا أيضاً، لنذير مزرعة سوية!».

«هذا أجمل ما يكون!»

ثم قال: «تلك شجرة حوْر رجراج...».

وسألته: «وما الفرق بين الحور والحور الرجراج؟».

فقال: «الحور الرجراج هو الذي يترجرج ورقه دائماً مع أدنى هبة ريح أو نسيم.... وهذه شجرة زيزفون؛ وتلك شجرة قيقب (انظري إلى أوراقها التي تشبه الورقة على العلم الكندي)... وتلك شجرة تنوّب فضي...».

ثم سألته: «لماذا فضي؟»

قال «انظري إلى لمعة أوراقها الإبرية الفضية... وهذه شجيرات لا أعرف أسماءها...»

ثم انعطفا يساراً، وأخذا يهبطان مدرجات صخرية، شديدة الانحدار. كان الطريق إلى اليمين واليسار مسيجاً بسياج معدني مشبك. وقال لها: «ناديا، هل شاهدت شجرة سفرجل في حياتك؟ انظري إلى اليسار، انظري إلى ثمارها».

«آ، نعم، يا إلهي، ما أجمل ذلك!»

«ولا شك أنك تعرفين أن هذه شجرة لوز، أليس كذلك؟ انظري كم هي مديدة الطول».

«أوه، يا إلهي. لكنني لم أعرفها قبل أن تؤكد لي ذلك. إنها مثمرة أيضاً، ويبدو أنْ لا أحد يهتم بثمارها».

ثم قالت: «هيثم، كيف عرفت أسماء هذه الأشجار؟».

Tele: @Arab_Books

قال: «أولاً، لأن عيني الرسام عينا نسر، مدققتان. وثالثاً. . .».

قاطعته ضاحكة: «ثانياً، هيثم».

فقال: «نعم، أعلم، لكنني أردت أن أقفز إلى السبب الثالث، لئلا أنساه، ثم أعود إلى السبب الثاني!».

فضحكت، وقالت: «يا إلهي، ما أظرفك. أنا لم أضحك وأبتهج في حياتي مثلما أفرح الآن بصحبتك».

«طيب، نعود إلى حديثنا. . . قلت ثالثاً، لأن قلبي كان يحدثني بأنني سأتعرف على مخلوقة مذهلة مغرمة بالطبيعة، ولهذا تعلمت أسماء الأشجار!»

«أوه، هيثم، أنت تسحرني بحديثك. . . وما هو السبب الثاني؟»

قال: «السبب الثاني، هو أن هذه الأشجار أصبحت صديقاتي، وأردت أن أتعرف على أسمائها، فاشتريت قاموساً نباتياً مصوراً، وحاولت أن أتعلم أسماء الكثير من الأشجار والنباتات باللغتين الإنكليزية والعربية».

«أوه، هيثم، أنت تعجبني كثيراً».

«وأنت تعجبينني أكثر!»

«بأي شيء؟»

«بجمالك الآسر، يا حبيبتي. . .»

Tele: @Arab_Books

وانحدرا إلى طريق الباص. ثم واصلا سيرهما في الطريق المنحدر، إلى أن أشرفا على فضاء فسيح، آسر في منظره وإطلالته على ما تحته. قال: «هنا مستشفى الحزب».

«أحب هذه المنطقة».

«إنها جميلة فعلاً. وبعد قليل سنصل إلى الشارع الرئيسي الذي يوصلنا إلى ساحة موسكو».

في ساحة موسكو، التي سارا إليها مشياً أيضاً، قال لها: «هل تحبين أن تلقي نظرة على سوق الفلاحين؟».

أجابت بلهفة: «نعم».

في ركن من أركان الشارع العام، الذي يفضي إلى السوق الشعبي، أثملتها رائحة الخبز الحار المعروض للبيع، فقالت: «آه، من هنا تشتري خبزك الكفاف؟».

«نعم».

«سأحمل معي زجاجة من عسل الأكاسيا من سوق الفلاحين».

«سنشتري فيما بعد».

ودخلا سوق الفلاحين، وتنقلا بين الدكاكين والأكشاك. كان الموسم في أوائل الخريف؛ وكانت الخضروات والفاكهة الصيفية ما تزال معروضة. لفت نظرها وجود ثلاثة أنواع من الخيار، كلها من الحجم الصغير (الشرقي). ولم يكن هنا تنوع كثير في الخضرة. الباميا لا وجود لها مثلاً. والفاكهة ليست متنوعة بكثرة،

Tele: @Arab_Books

كما في الغرب، كل شيء هنا من نتاج التربة المجرية. لأجل هذا أحبت هذا السوق، وأحبت وجوه الباعة، الذين ابتسم البعض منهم لهيثم، ولها أيضاً. وقالت ناديا: «سنشتري من هنا بعض ما ستطبخه لنا، أليس كذلك؟».

«بالطبع».

ثم قال: «أعتقد أننا أخذنا قسطنا بما فيه الكفاية من الطبيعة، اليوم، فلا حاجة إلى المزيد من ذلك، اليوم. وأنا واثق أنك تتحرقين شوقاً، الآن، إلى مقهى من طراز فاخر».

«أوه، هيثم، أنت بارع في قراءة أفكاري».

«وأفكاري أيضاً!».

ضحكت، وقالت: «هل أنت دائماً هكذا، تملك روح نكتة؟»

«على العكس... هذا بفضل صحبتك، وإلهامك!»

واشترى هيثم عدداً من تذاكر النقل من ساحة موسكو، ثم استقلا قطار المترو إلى (دياك تير). ومنها توجه هيثم بصحبة ضيفته المفتونة إلى مقهى (غيربو). وبعد أن اتخذا مقعديهما، قال هيثم لناديا:

«هناك أصناف شهية من الغاتو الصغيرة، يمكن اختيارها من القترينة عند الكاونتر. وهناك كعكة صغيرة أيضاً، مدانة بالزبدة، والجبن، والملح، تسمى بوغاتسا. فماذا تفضلين؟».

«أريد أن أجرب البوغاتسا، مع القهوة بالحليب».

Tele: @Arab_Books

«وسأطلب أنا نفس الشيء».

كان هذا المقهى، ربما هو ومقهى هنغاريا أيضاً، من مخلفات العهد الإمبراطوري، بأبهة بنائهما. فانبهرت ناديا بمبنى المقهى، وقالت: «لا أدري، إذا كانت هناك امرأة في الدنيا تحب المقاهي أكثر مني».

فعلق هيثم: «وهل تعلمين أن المقاهي من أجمل الإنجازات الحضارية والاجتماعية التي قدمها الأتراك إلى العالم؟».

«صحيح، شكراً للأتراك إذن. فأنا أعتقد أن الحياة بلا مقاه تصبح مملة».

«ولا شك أن المقهى ما كان ليوجد بدون القهوة. أليس كذلك؟».

قالت: «بالتأكيد».

«وهنا يدخل دور العرب أيضاً. فبواسطة العرب عرفت القهوة، لأنهم أول من صنع شرابها، وذلك بعد تجفيف حبها، وتحميصه، وطحنه، وإغلائه بالماء».

«صحيح؟ هذا جميل».

ثم قال: «وأنا جمعت المجد من طرفيه!».

«كيف؟»

«ذلك إن أجدادي من جهة أبي كانوا أتراكاً، ومن جهة أمي عرب».

Tele: @Arab_Books

«ظريف».

ثم قالت: «هيثم، حدثني عن نفسك وعن عائلتك».

«لا بأس، على أن تحدثيني أنت أيضاً عن نفسك وعائلتك».

«نعم».

وجدها هيثم فرصة لأن يروي لناديا حكايات مثيرة عن أقاربه. قال: كان جدي المباشر، والد أبي، يملك أطياناً كثيرة، بما في ذلك الأرض الممتدة من نهر دجلة عند الصالحية حتى الحارثية وما بعدها. هل تعرفينها؟».

«لا، هيثم، أنا لا أعرف شيئاً عن بغداد».

«طيب... بإيعاز من الحكومة العثمانية، طلب الوالي في بغداد من جدي أن يبيع الحكومة الألمانية شريطاً من أرضه كجزء من مشروع إنشاء خط سكك حديد برلين ـ بغداد. وتم البيع في السراي، أي مقر الحكومة العثمانية في بغداد. كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى. وكان المبلغ عشرة آلاف ليرة ذهبية. وهو مبلغ كبير يومئذ. ولم يكن يومذاك نظام للمصارف في بغداد، أو ربما كان، لكن جدي كان يجهله. فوزع جدي على البالغين من أولاده، ولم يكن عددهم قليلاً، بنادق وأكياساً، وتوجهوا إلى السراي على ظهور الخيل. فحمل كل منهم كيساً من هذه الليرات الذهبية. وفي طريق العودة إلى بستانهم تصدت لهم عصابة من اللصوص. لكن اللصوص تراجعوا بعد أن تبين

Tele: @Arab_Books

لهم أن المعركة لن تكون في صالحهم. . . وبهذا المبلغ الكبير، اشترى جدي اثني عشر منزلاً من خيرة منازل الكرادة الشرقية».

قالت ناديا: «هذا شيء ظريف، يذكرنا بأفلام الغرب الأميركية والكاوبويز».

«بالضبط. وكان بعض أعمامي لا يختلفون كثيراً عن الكاوبويز!».

«كيف؟».

ثم روى لها كيف أُنقذ أبوه من موت محقق لو كان سيق إلى جبهة السفربرلك. قال: كان أبي قد جُند لما بلغ عمره الثامنة عشرة، من بين من جندوا في الحرب العالمية الأولى. وتقرر إرساله إلى جبهة السفر برلك. فحشر في طابور من المجندين، تحرك من نقطة التجمع في صوب الكرخ. وكان أبي يحمل متاعه وعفشه معه للتمويه. لكن أعمامي كانوا قد أعدّوا خطة لاختطاف أبي من الطابور، والهرب به إلى بستاننا، التي كان بوسع عصبة من الناس أن تختفي بين قصبها وحشائش الدخن فيها التي تعلو على هامة إنسان. . .».

سألته ناديا: «ولماذا الدخن وليس الحنطة أو الشعير، وهما يدرّان ربحاً أكثر».

قال هيثم: «لا أدري بالضبط. هكذا سمعت القصة. ولعل جدي كان يزرع الدخن علفاً للخيل والدواب، والدجاج

Tele: @Arab_Books

والطيور. . . المهم أن الطابور تحرك بين عويل الأمهات وبكاء الأقارب، وضجيج المجندين. . . ولكِ أن تتوقعي أن الحراسة يومذاك كانت ضعيفة، أو ليست في المستوى المطلوب. وقد اتفق أعمامي أن يتظاهر بعضهم بالشجار أمام الحارس القريب من موقع أبي، فينصرف انتباهه إليهم، ويأتي عم آخر على ظهر فرسه، ثم يساعد أبي في امتطاء الفرس معه، ويفرّ به. وهذا ما كان. . .».

قالت: «مستحيل!».

«صدقيني إن هذا ما حدث، وإلا لما كنت أنا الآن أمامك أروي لك هذه الحادثة».

«شيء لا يصدق. لكنه جميل، وهو عمل كاوبويز من طراز أول!».

ثم طلب منها هيثم أن تحدثه عن عائلتها، فقالت ناديا إن أمها أميركية، وأباها ضابط متقدم في الجيش العراقي، أرسل إلى فلوريدا في الولايات المتحدة في دورة عسكرية. وهناك تعرف بأمها، وتزوجا، وانتقلت أمها معه إلى العراق. ووُلدت شقيقتها لِلي التي تكبرها مباشرة، وهي، في بغداد. وبقيت العائلة على أتم ما يكون من الوئام، إلى أن صدر قانون بعدم السماح للمنتسبين إلى السلك العسكري بالزواج من أجنبيات. وكان هذا القانون يسري بصورة رجعية أيضاً، فشمل أباها. وبما أن أباها لم يكن يحق له الاستقالة من الجيش، فقد اضطر إلى الانفصال عن

Tele: @Arab_Books

أمها، وتركت العراق بصحبتها هي وأختها للي، لأنهما كانتا طفلتين. عادت بهما إلى فلوريدا. وبقين هناك إلى أن كبرت الشقيقتان. وتزوجت أمهما من رجل أميركي كان يعاملهما، هي وأختها، وكأنهما ابنتاه. كان لطيفاً جداً معهما. . . «لكنني مع ذلك كنت أحن إلى أبي الحقيقي في بغداد، لأن أمي كانت تمتدحه، وتؤكد أنه كان يحبنا كثيراً، ويدللنا باللعب والهدايا». وأكدت أن أباها لم يتزوج بعد ذلك. وقيل إنه كان يعاشر الراقصات، وربما العشيقات. وكان غنياً، إلى جانب راتبه، ورث عن أبيه أملاكاً ومصنعاً لصنع بدلات للجيش.

سألها هيثم: «هل أنت حزينة لما جرى؟».

قالت: «نعم».

«الآن، صرت أفهم سر تعلقك بالعراقيين».

«نعم».

«وهذا جاء من صالحي!».

«نعم!».

في المساء ذهبا إلى مطعم فاخر، يقع في الطريق إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بودابست. وهو مطعم يُدعى إليه رؤساء الدول، والشخصيات العالمية المهمة. وروى لها أنه ذهب إلى هذا المطعم، في أوائل العام ١٩٨٢، بصحبة نائب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في بودابست (لأن الرئيس كان غائباً)، والممثلة البريطانية اليسارية ڤانيسا ريدغريف. . .

Tele: @Arab_Books

فعقبت ناديا: «شاهدت لها فيلماً عن فاغنر، مثلت فيه دور كوزيما (ابنة لست، وزوجة فاغنر)».

قال هيثم: «نعم، بالضبط. وقد سألتها عن هذا الفيلم، لأنني لم يُتَحْ لي أن أشاهده، فحدثتني عنه... وكانت هي قادمة من لندن في مهمة لعلها فنية. ودعاها نائب رئيس المنظمة، بحضوري وآخرين، إلى هذا المطعم، أيام كنت أتردد على المنظمة... ثم دعاها إلى منزله أيضاً، وعرّفها بزوجته. وكان ذلك شيئاً لائقاً منه».

ثم قال هيثم: «ويبدو أن ڤانيسا ارتاحت إليّ، ربما لكوني فناناً، ولأنني دخلت معها في حديث عن فاغنر ولستْ وموسيقاهما... كان حديثاً شيقاً حقاً... وقد لمست أن السيدة ريدغريف كانت تتصرف بمنتهى البساطة والتواضع، ربما لأنها تعتبر نفسها مناضلة سياسية في المقام الأول. فقد كانت تتحدث بإسهاب عن قضايا الساعة والحياة السياسية في بريطانيا... ثم قرر نائب رئيس المنظمة دعوتها مرة أخرى، لا أذكر أين، ولم أحضر أنا، مع أنني كنت مدعواً أيضاً. كنت أخشى الحساسيات، لأنني لست فلسطينياً، وأخشى أن «أحتكر» قسطاً غير قليل من الحديث مع ڤانيسا... لكنهم أخبروني فيما بعد، مستغربين، أنها سألت عني».

فسألته ناديا: «لماذا سألت عنك؟».

قال: «لا أدري، سوى أنني أذكر أنني قبل ذلك كنت قرأت

Tele: @Arab_Books

كتاباً كبيراً عن فاغنر، تأليف ثروت عكاشة، بعنوان (موسوعة فاغنر). ودخلت معها في حديث عن فاغنر وموسيقاه وأفكاره، وحتى موقف اليهود منه. وتطرق الحديث، طبعاً، إلى كوزيما التي مثلت دورها ڤانيسا، وإلى مذكراتها أعني مذكرات كوزيما. وقلت لڤانيسا أنني في البدء أقبلت على قراءة هذه المذكرات بحماس، لكنني ضجرت من تفاصيلها اليومية الاعتيادية، وتركتها. فضحكت، وقالت: «لا ألومك، ما أنا فقد قرأتها لكي أتعرف على شخصيتها جيداً.»... وربما كان هذا سبب انسجامها معي».

ثم قالت ناديا: «يبدو أنك تملك براعة في الحديث مع النساء!».

وعقّب هيثم: «ربما، فقد استطعت أن أكوّن علاقات مع بعض النساء، الجميلات، مثلك، مع أنني أجدني عيياً أمام أندادي من الرجال!».

«صحيح؟».

«نعم، فأنا لست لبقاً في الحديث بصورة عامة. لكن الحال تختلف مع النساء، لا أدري لماذا... هل تستطيعين أن تقدمي لي تفسيراً لذلك، لأنك ممن وقعتِ في حبائلي!... طبعاً، أنا لست ممن ينصبون الفخاخ!».

قالت ناديا بعد إطراقة: «نعم، بالضبط، ربما لأنك توحي للمرأة بأنك لست معها!».

Tele: @Arab_Books

«ربما، لكنني لا أتعمد ذلك... ربما يتعلق الأمر بما يمكن أن أسميه عنصر الكرامة. أنا شديد الكرامة، إلى حد أنني لا أريد أن تظن أي امرأة، حتى لو كانت مذهلة، أنني أنظر إليها، أو أفكر فيها!... أتعلمين لماذا؟».

«لماذا؟».

ابتسم، وقال: «لأنني أؤمن بأن كثيراً من النساء فارغات، فلماذا أتهافت أمامهن!».

سألته بهلع: «هيثم، هل أنا فارغة؟».

«طبعاً، لا!».

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان. بعد مضي خمسة أو ستة أيام على زيارة ناديا، التي خصصت لها عشرة أيام، حدث شيء قلب كل الموازين... كانا جالسين، قبيل الظهر، على إحدى مصطبات الحديقة التي تقع في منتصف الطريق - شارع مارتيروك - بين ساحة موسكو وجسر مارغيت. وكانا مستمتعين بمنظر الزهور في الحديقة، والنافورات المائية. وهنا سألت ناديا هيثم، قائلة:

«هيثم، أنا اتخذت قراراً، مع نفسي، أن أكرس نفسي وحياتي لك، بعد أن وقعت في حبك، ووجدتك الرجل الوحيد الذي يصلح لي... لكنني لا أعرف حتى الآن ما هي درجة ارتباطك بي. هل لديك الاستعداد لأن تربط مصيرك بي أيضاً؟».

فوجىء هيثم تماماً بهذا السؤال. وتذكر موقفه مع فتاة مجرية

Tele: @Arab_Books

تصغره بسنوات كثيرة أيضاً، عندما كان صريحاً معها، حين أراها صورة تجمع بين زوجته وابنه وابنته. ولم يلمس رد فعل من لدنها في حينها. لكنها لم توافه بحضورها في اليوم التالي إلى شقته، بعد أن ضربا موعداً لذلك. فأيقن أن صدقه كان وراء خسرانها. والآن، أمن المعقول أن يلجأ إلى الكذب مع ناديا؟ قال:

«ناديا، هل تعلمين أنني متزوج، ولي ابن وبنت؟».

كان هو ينظر الآن، ساهياً، إلى ارتفاعات مياه النافورة غير المتساوية في اندفاعاتها إلى الأعلى وهبوطها. أما هي، فلعلها كانت تنظر إلى شيء آخر، أو لا شيء.

قالت: «لعلي أعلم ذلك، يا هيثم. لكن ما هو موقفك مني، ومما ذكرته؟».

ودَّ هيثم هنا لو تتاح له فرصة أطول للجواب، مهلة طويلة جداً، لكي لا يتلقى رداً قاسياً من هذه الحبيبة التي نورت حياته وحولتها إلى فردوس.

قال: «أنا أحبك، يا ناديا، حد العبادة».

«أنا أعلم ذلك، يا هيثم، لكنك لم تجبني عن سؤالي».

يا إله السماوات، كيف تحولت هذه الطفلة البريئة إلى جلادة بين عشية وضحاها؟ أهذه هي ناديا، الأرقّ من فراشة، تتحول الآن إلى نمرة؟ إنه لا يستطيع أن يكذب عليها. فهو لا يزال يعتبر

Tele: @Arab_Books

نفسه مرتبطاً بعائلته، التي تركها تصارع القدر في العراق، فكيف يخون ضميره ويتنكر لها؟... وحبه، ماذا سيكون مصيره؟ قال:

«ناديا، أنا لا أعرف الكذب، ولا أريده. قلت لك إنني متزوج، ولي ولد وبنت».

«هيثم، أنت لم تجبني... هل لديك استعداد لأن تربط مصيرك بمصيري؟».

«هذا يعني أن أنفصل عن زوجتي وعائلتي».

«أرجو أن لا تزجني أنا في مشاكلك، يا هيثم، فأنا لي مشاكلي الخاصة أيضاً... أنا أريد جواباً واضحاً».

«يا إله السماوات، أنت تحاصرينني، يا ناديا».

«ماذا أفهم من كلامك؟».

«ناديا، أنا لا أحب أن أكذب عليك، ربما يفعل ذلك غيري، أعني أن يكذب عليك، ويعطيك وعداً أو عهداً بقطع علاقته بعائلته، لكنه لا يفعل ذلك في واقع الحال. أنا لا أعرف الكذب، يا ناديا».

«طيب، أفهم من هذا أنك لا تستطيع أن تكرس نفسك لي... أرجو أن تعتبر علاقتنا منتهية منذ هذه اللحظة. وبما أن لي بضعة أيام للسفر، فإنني سأضطر إلى البقاء معك إلى أن يحين موعد سفري، على أن نمارس حياتنا كغريبين».

«يا إله السماء، ماذا تقولين، يا ناديا؟ أنت تنهالين على رأسي بفأس».

Tele: @Arab_Books

في علاقتنا».

«وما العمل؟».

«لا شيء، سوى أن نبقى رفيقين صامتين... هيا لنذهب إلى أحد المطاعم لنتغدى، على أن أدفع أنا من الآن عن نفسي».

ونهضت، فنهض هو الآخر. وسارا صامتين إلى أقرب مطعم، وهو لا يبعد كثيراً عن الحديقة التي كانا جالسين فيها. وهناك طلب كل منهما صحناً، تناولاه بصمت، ثم أصرت ناديا على أن تدفع عن صحنها، وعادا صامتين إلى الشقة.

في الشقة شاغلت ناديا نفسها بقراءة شيء من بين كتب مكتبته. وشغل هو نفسه في القراءة أيضاً. لكن هل كانا يقرآن حقاً، أم أن ذهنيهما كانا في مكان آخر؟ وقُبيل حلول المساء، قال لها: «ناديا، هذا وضع لا يطاق، يا حبيبتي. أنت جئت لزيارتي، أو لزيارة بودابست. وأنا لا أريد لزيارتك هذه أن تنتكس».

«هيثم، أنا أستطيع تحمل ذلك. اتركني، رجاء».

«وماذا عن العشاء؟ هل تحبين أن نذهب إلى أحد المطاعم؟».

«لا، هل عندك شيء تطبخه؟».

«سأدبر شيئاً، لكن يتعين عليَّ أن أذهب إلى السوق لشراء شيء. هل لديك مانع؟».

Tele: @Arab_Books

«لا، ليس لدي مانع».

ارتدى حذاءه، ووقف في باب الغرفة، وقال: «لن أتأخر كثيراً».

«طيب».

خرج هيثم وهو دائخ تماماً مما حدث. أمن المعقول أن هذه العلاقة الجميلة، الحميمة، ذهبت إلى غير رجعة؟ وهل سيبقيان يمارسان حضورهما في شقة واحدة كغريبين؟ هل حدث هذا في تأريخ العلاقات بين محبين؟

وفكر أن يأتي بزجاجة نبيذ أيضاً، وأن يُعدّ طبخة جيدة، كأنَّ شيئاً لم يحدث. وعندما عاد بحمله، وقف على وصيد الباب، فألفاها مستلقية على السرير، ولعلها فتحت عينيها الآن، بعد أن أحست بمجيئه. حياها قائلاً: «هلو، حبيبتي».

«هلو، هيثم».

قالتها تأدباً، بفتور. وضع قنينة النبيذ على الطاولة الوطيئة في الغرفة، ثم انتقل إلى المطبخ. وبعد أن استبدل حذاءه بالخف المنزلي، شرع في إعداد الطبخة. قرر أن يطبخ رزاً مع خلطة دجاج، وبزاليا، وبطاطا، وفطر، وبصل، بالدارسين (القرفة).

وعلى مائدة العشاء، فتح قنينة النبيذ، وصب لها، ثم له، ورفع كأسه، وهمَّ بأن يقول نخباً، لكنه تراجع. نخب أي شيء؟ وشربا بصمت. وأنهيا عشاءهما بصمت أيضاً. كانت صامتة مثل

Tele: @Arab_Books

أبي الهول. وهو لم يعد بمقدوره أن يفعل شيئاً، لأن التراجع سيجعل منه هُزأه، في اعتقاده. لقد كان صريحاً معها، وأحب أن يبقى صريحاً.

وعندما حان وقت النوم، قال: «سأنام في الغرفة المجاورة».

«نعم، رجاء، هذا أفضل».

يا إله السماوات، هل هناك شقاء أشد نكالاً من هذا؟ هل سيعود إلى نقطة الصفر، أو ما دونها، بعد كل تلك السعادة الفردوسية؟ لكنه هل سيستطيع النوم حتى الصباح؟ أهذا وضع يمكن إيجاد تفسير له؟ كيف تمضي الثواني، والدقائق، والساعات، إلى أن يحل الصباح. فالليل غول ينهش في القلب على مدار هذه الثواني، والدقائق، والساعات. ثم هل سيستمر الوضع هكذا بقية الأيام الأربعة؟ أربعة أيام أخرى من شقاء وعذاب موصولين؟ ما معنى هذا؟ ولماذا آل الأمر إلى هذه القطيعة المفاجئة العجيبة؟... لكنه لا يستطيع التخلي عنها. إنه يعبدها. فهل ينفصل عن زوجته؟؟ وابنه وابنته، ماذا سيحل بهما؟... لكنها لم تطلب هذا بالضبط. قالت: «هل لديك الاستعداد لأن تربط مصيرك بي أيضاً؟» ما معنى هذا؟ أن يربط مصيره بها؟ لم تقل بصريح العبارة أنها تطلب منه أن يقطع صلته بزوجته وعائلته. لكنها طالبته بأن يربط مصيره بها. أليست هذه متطابقة رياضية؟ لكن ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسها؟ ألأنها ازدادت تعلقاً به إلى حد أنها تريد وعداً بالارتباط بها؟...

Tele: @Arab_Books

الارتباط بها، أم أن يربط مصيره بها؟ ماذا تقصد بالضبط؟ وهل استطاع أن ينام تلك الليلة؟ كلا، لم ينم، ولم يكن في وسعه حتى أن يترك فراشه، كما كان يفعل عندما يجفوه النوم، لأنها نائمة في الغرفة المجاورة. ودخل في روعه بأنه سيكون أشقى مخلوق في الكون. فعلى قيد خطوتين منه، عبر الباب فقط، تنام مخلوقة كانت متيمة به قبل اثنتي عشرة ساعة، لكنها الآن ترفض الكلام معه، وهي، مع ذلك، لا تزال مقيمة عنده، وتتناول الطعام معه، وتشرب النبيذ أيضاً، لكن كغريبة، هل حدث هذا لآخرين؟ مع ذلك، أعرب عن امتنانه للقدر لأنها لن تسافر غداً، وتتركه دون أن يبقى له بصيص أمل في أن ترجع عن قرارها.

صباح اليوم التالي، استحم هو قبلها، كالعادة، ثم عاد، فوجدها ما تزال نائمة. عاد إلى غرفته (الثانية) لئلا توقظها حركته. ولم يبرح الغرفة إلا بعد أن تناهت إليه حركة في الغرفة الأخرى. عند ذاك، ذهب إلى المطبخ، وأعدَّ وجبة الفطور، التي تناولاها بصمت أيضاً.

وكان لا بد أن يسألها إن كانت ترغب في الخروج. ففضلت البقاء حتى العصر. وإذا كان هناك بقية من طعام أمس، فبوسعهما التبلغ به ظهراً. ذلك أنها تريد أن تغسل شعرها، ثم تخرج عصراً.

سألها: «سوية؟».

«نعم».

Tele: @Arab_Books

ظهراً، سخّن بقية طعام أمس، وأعدَّ معها حساءً، وكان عنده آيس كريم أيضاً. فسرّها ذلك. وخُيّل إليه أن وجهها بدا أقل اكفهراراً. ثم سألها، بعد أن أنهت صحن الآيس كريم، إنْ كانت ترغب في المزيد منها، فقالت: «نعم، رجاء».

يا إله السماء، أية سعادة. وتمنى لو كانت عنده شوكولاتة، ليسخنها ويضيفها فوقها، لأنها تحب ذلك.

ثم لاحظ أنها همّت بالذهاب إلى الحمام، فور الفراغ من تناول الطعام، فقال لها: «ناديا، لا يُنصح بالاستحمام فوراً بعد تناول الطعام».

«ها؟ أكيد؟».

«أنا لا أنصحك بذلك».

«طيب، كم يتعين عليّ أن أنتظر؟».

«ساعتين على الأقل، أو ثلاثاً».

«وماذا سأفعل الآن؟».

«استريحي، وإذا أردت أن تستلقي على السرير، فأنا أذهب إلى الغرفة الأخرى».

«لا، ابقَ هنا. لماذا تجبر نفسك على الذهاب إلى الغرفة الأخرى؟».

ضحك، وقال: «هكذا كان المفروض أن نكون من البداية، أعني أن نقيم في مسافر خانة!».

Tele: @Arab_Books

«ما معنى مسافرخانة؟».

«فندق».

«طيب، أنا سأستلقي على السرير، أو أنام. وبعد ساعتين أيقظني، رجاء، إذا غلبني النوم».

«طيب».

لم تنم. وبعد نصف ساعة حملت أشياءها وذهبت لتستحم. لم يعلق هيثم في شيء. كان جالساً أمام طاولة الكتابة يحاول كتابة رسالة إلى صديق في سوريا. لكنه توقف بعد سطرين... وعندما ذهبت ناديا إلى الحمام، استلقى هو على السرير. وبعد نصف ساعة، خرجت من الحمام وقد لفّت شعرها بالمنشفة. ثم رفعت المنشفة عن شعرها وجعلت تفركه بها براحتي يديها. وبعد ذلك استعملت مجفف الشعر.

كان هيثم ينظر إليها من مكانه على السرير، ويرى إلى تورد وجهها، وحركاتها التي بدت له طبيعية جداً، وكان مزاجها رائقاً أيضاً، على ما يبدو. تجرأ على القول:

«هل تحبين أن نتمشى في الشارع الخلفي، ثم نعود لنستريح، وبعد ذلك نذهب إلى مطعم في البلد؟ أنا أفكر في فندق Penta. ما رأيك؟».

«طيب».

في طريقهما، وهما يتمشيان في الشارع الخلفي، قال: «ناديا، نسيت أن أخبرك بأننا نسمي هذه النبتة في العراق نبتة الختمة».

Tele: @Arab_Books

«أوه، يا حبيبي، أنا آسفة جداً، يا روحي. . . هيثم، أكرر أسفي، يا عزيزي».

شهقت روحه فرحاً، وقال: «أنا آسف أيضاً، إذا كنت قد سببت لك أي إزعاج أو استياء».

«هيثم، أنا لا أستطيع أن أتخلى عنك. . . لا أستطيع بأي شكل من الأشكال».

«يا حياتي، أرجو أن تعلمي أن هذه أسعد لحظة في حياتي».

«هيثم، لنستمتع بما تبقى من أيام. وعلى أية حال، سيكون هذا اللقاء overture لمستقبل حياتنا القادمة».

«وأنا أعدكِ بأن أكون معك دائماً».

«شكراً، هذا أحسن. . . أوه، هيثم، كانت الأربع وعشرون ساعة الماضية كابوساً. وأنا كنت مجنونة».

«لا تبالي. أنا أحبك حد العبادة. وصدقيني أنك دمرتني في الأربع وعشرين ساعة الماضية».

«أنا آسفة، يا روحي».

وعادا إلى البيت، وهما في أرفع معنوية. وكان الآن قد حان وقت شرب شاي العصر مع المعجنات. فاستأذنها بأن يأتي بشيء من المعجنات من دكان الحي، أسفل شارعه مباشرة. فقالت له: «لا تتأخر».

«لن أتأخر».

Tele: @Arab_Books

«عاد كل شيء إلى نكهته السابقة. وأكلا خبزاً وجبناً أيضاً، مع الشاي، لأن غداءهما كان بائساً إلى حد ما.

في المساء ارتدت ناديا بدلة جديدة، خضراء، وقلادة.

وسألت هيثم كيف تبدو بذلك، فقبّلها، وشم شعرها، وقال: «امبراطورة!».

«لنبذخ اليوم، هيثم، لنشرب شامبانيا في مطعم الفندق، ونطلب أغلى وجبة، مع ألذّ حلوى. وسأكون أنا المضيفة».

«لماذا؟ أريد أن يكون لي شرف استضافة الإمبراطورة، ببدلتها الجديدة الجميلة. وفي بروكسل ستكونين أنت مضيفتي».

«من كل بد. سأنزلك في شقة فاخرة».

ثم سألته: «هيثم، متى ترسمني؟».

«في مناسبة أخرى».

«لماذا؟»

ابتسم، وقال: «لأنني أريد أن تتطلعي أكثر إلى لقائنا التالي!».

«لكن هذا لن يقدم أو يؤخر ما دمت متعلقة بك، يا هيثم».

«إذا شئت الحقيقة، أنا أريد أن تكون لوحتك أجمل لوحة أرسمها. لذلك أريد أن أختار الوقت المناسب لذلك».

«طيب، أنا أيضاً أريد أن تكون لوحتي أجمل لوحة ترسمها!».

Tele: @Arab_Books

«أنت غلاطيا بالنسبة لي».

«من هي غلاطيا؟»

«هي التمثال الذي نحته پغماليون، ثم استحال إلى امرأة حية».

«آه!».

«لكنني سأرسم لك مخططات بالقلم الفحم، وسأحتفظ ببعضها، وأترك البقية لك».

«جميل!»

وهكذا أمضيا بقية الأيام في بهجة دائمة. وعندما حان موعد سفرها إلى بروكسل، تملكتها الكآبة. وفي المطار بكت ناديا، وعاد هيثم إلى شقته وهو يشعر بفراغ هائل. وفي اليوم التالي اتصل بها. كان لصوتها رنين ملائكي على سمعه. وكانت سعيدة جداً لسماع صوته أيضاً. شكرته كثيراً على حسن ضيافته، وشكرها هو أيضاً على زيارتها الجميلة. ووعدته بأن تكتب إليه بلا انقطاع، كما طلبت منه أن لا يقصّر أو يتأخر في مكالماته.

Tele: @Arab_Books

III

بعد عودة ناديا إلى بروكسل، بدأ التراسل بينهما، هي باللغة الإنكليزية التي تجيدها خيراً من العربية الفصيحة؛ وهو بالعربية التي يستطيع التعبير عن نفسه بها بصورة أفضل، لأنها لغته الأم. لم تكن رسالتها الأولى من بين الرسائل التي احتفظ بها. كان يسعده أن يعيد قراءتها الآن. كل ما يذكره منها، الآن، بعد مضي خمسة عشر عاماً، أنها كانت طويلة بعض الشيء، وأنها ربما كانت أعذب شيء قرأه في حياته، ليس ببلاغتها، بل بمضمونها. كانت تلهج في كل سطر من سطورها بأصدق مشاعر الحب، وتتغنى بكل وقائع المشوار الذي أمضته معه في بودابست. وكتب إليها فوراً،على طريقته الخاصة في الكتابة. إنه يجيد كتابة الرسائل، لأنها موجهة إلى شخص واحد يستطيع مخاطبته بملء حريته... ووجد الاثنان أن حياتهما أصبح لها معنى من خلال علاقتهما الجديدة. هي تغلبت على سأم الإحساس بالاغترابية وافتقاد الهوية؛ وهو وجد في هذه العلاقة طعماً لحياته التي سممتها الأوضاع في بلده بعد أن زُجَّ في حرب مجانية مع إيران. وعلى مدى الأشهر الستة التي انقضت على زيارتها الأولى

Tele: @Arab_Books

لبودابست، كانت الرسائل والمكالمات التلفونية وسيلتي الاتصال الوحيدة بين الطرفين. ولأن حركتها هي كانت أيسر من حركته، لذلك بقيا بانتظار أن تتاح لها الفرصة لزيارة ثانية. ولم تتحقق هذه الزيارة إلا بعد ستة أشهر. هذه المرة قررت ناديا السفر بالقطار، من بروكسل إلى بودابست. كانت رحلة طويلة استغرقت ليلة بكاملها وزيادة، لكنها فضلتها على الطائرة، لأنها أقل تعرضاً للخطر، وأكثر رومانسية.

أمضت معه عشرة أيام أيضاً، كانت أسعد من سابقتها، لأنها خلت من منغصات (أو نزوات في واقع الحال). واكتشفا في هذه الزيارة مطعماً قريباً من حيه، مطلاً على واد فسيح يضفي على سهراتهما جواً فردوسياً. . . وفي نهاراتهما كانا يمارسان حياة سياحية بكل معنى الكلمة. كانا يُمضيان بعض نهاراتهما في جزيرة (مارغيت) الساحرة، وسط بودابست، وأحياناً في حدائق (ساحة الأبطال). ويقومان، بواسطة الترامواي، بزيارات إلى ضواحي بودابست، بما فيها المنطقة الجبلية، حيث يستقلان التلفريك الذي يسير بهما فوق منطقة مترامية وآسرة بمناظرها الطبيعية، وحين يؤثران الراحة، كانا يترددان إلى جناح المقهى في فندق (بيكة) للاستماع إلى عزف على البيانو تؤديه سيدة عجوز لعلها أمضت عشرات السنين في أدائها هنا.

وتكررت لقاءاتهما بعد ذلك في زيارات متقاربة تقوم بها ناديا إلى بودابست. وفي أثناء ذلك أنجز هيثم رسم صورة لناديا،

Tele: @Arab_Books

استغرق العمل فيها زيارتين. كانت لوحة زيتية اعتزت بها ناديا كثيراً.

وقبل أن يرسمها، عادت فسألته عن صاحبة الصورة المعلقة فوق سريره. قالت: «هيثم، لم تقل لي من هي صاحبة هذه الصورة».

«امرأة مجرية».

«هل كانت بينكما علاقة؟».

«نعم».

«أريد أن أعرف ما هو نوع العلاقة بينكما».

قال إنه كان يتردد إلى مكتبة الأكاديمية (في بودابست)، للبحث عن كل ما له صلة بعالم الخيل؛ فهو كان وما يزال يعتقد بأنه قد يتوصل إلى نظرية جديدة حول موطن تدجين الخيل، غير ما هو متعارف عليه حالياً. وقد أثارت نظريته هذه فضول هذه السيدة، فاندفعت لمساعدته، ثم نشأت بينهما علاقة.

هنا عيل صبر ناديا، فقالت: «وماذا بعد، يا هيثم؟ لماذا لم تخبرني بهذه العلاقة من قبل؟».

«الحقيقة أنها علاقة كانت محدودة».

«ماذا تقصد؟ هل كانت بينكما علاقة جسدية؟».

ضحك، وقال: «ماذا تتوقعين؟»

«صحيح؟»

Tele: @Arab_Books

«نعم، ولكن في نطاق ضيق جداً، فهي لم تكن في مقتبل العمر. كانت في الخمسينات من عمرها. مع ذلك كانت إنسانة طيبة جداً، وراغبة في تقديم خدمات بيتية لي».

«ماذا تقصد؟»

«كانت تُعِدُّ لي طبخات مجرية، وتحملها إليّ».

«إلى البيت؟»

«نعم».

«وهل كانت تسهر معك حتى الصباح أحياناً؟»

«ماذا تتوقعين؟»

«وهل كانت جميلة؟»

«ليس بشكل لافت للنظر. لكنها كانت مذهلة في مخدع النوم، إلى حد أنها سببت لي حرجاً مع الجيران».

سألته: «كيف؟».

قال كان ذلك في شقة سابقة، كان يقيم هيثم فيها، في البناية الثالثة من نفس المجمع الذي يقيم فيه حالياً. وكانت هي شبقة وفنانة في استثارة الرجل. واعترف بأن فعل الحب معها في الليلة الأولى استغرق ساعة بكاملها قبل أن يصلا كلاهما إلى الذروة. وكان السرير طوال تلك الساعة يصرّ من تحت جسديهما... ثم جاءه صاحب الشقة في نهار اليوم التالي، وأخبره وهو يضحك بأن جارته وابنتها في الشقة التي تقع تحت شقته تماماً لم تناما تلك الليلة بسبب الأصوات التي كانت تصدر عن غرفة نومه!

Tele: @Arab_Books

لكن ناديا أفهمته بأن حديثه عن هذه المرأة المجرية أساء إليها كثيراً، رغم أنها لا تملك حقاً في لومه، لأن ذلك حدث قبل أن تنشأ العلاقة بينهما. فاعتذر لها، وقال لها ألا يعجبك أن أكون صريحاً معك؟ فاقتنعت بكلامه.

ثم سألها هيثم: «ناديا، هل تستطيعين أن تقدمي لي خدمة في هذا الموضوع؟».

«نعم، لكنك لا تستحق!»

«بإمكانك، يا حبيبتي؟»

«نعم»

«كيف؟»

قالت ناديا: «لعلك لا تعلم أن في لوڤان مكتبة خاصة بالدراسات الفلسفية وكل ما يتعلق بشؤون الفكر والتأريخ، إلخ؛ ومكتبة أخرى خاصة بالدراسات اللاهوتية لا تقل عنها أهمية؛ وهناك مكتبة جيدة أيضاً في جامعة لوڤان؛ طبعاً إلى جانب مكتبة جامعة بروكسل القيمة أيضاً».

«هل أستطيع أن أضع ثقتي فيك بهذا الصدد؟»

«تستطيع»

وهكذا دخلت العلاقة بينهما مرحلة جديدة عززت آصرة الحب بينهما. وفي أول رسالة لها بعد تلك الزيارة أكدت له أنها عثرت على مصادر مهمة في مكتبات لوڤان، ذكرت من بينها: (الكتاب

Tele: @Arab_Books

الكامل عن الحصان)، و(تأريخ الحصان)، و(التأريخ الطبيعي للحصان).

وأخبرته أيضاً بأن هناك كتاباً آخر عن (الجمل والعجلة)، وجدته، لدى تصفحه، لا يقل أهمية عن الكتب السابقة. فطار صوابه، ونزل فوراً إلى مركز البلد، ليكلمها تلفونياً. ولدى الاتصال بها، قال لها: «ناديا، يا حبيبتي، أنت مذهلة. هل تريدين أن أطلق زوجتي لقاء هذه الخدمات الجليلة!».

ضحكت، وقالت: «أنت أجبن من أن تفعل ذلك!»

«على أية حال، لن أنسى جميلك إذا دبرت لي هذه الكتب، أو استنسخت (بآلة الاستنساخ) ما لم يكن متوفراً في الأسواق».

«سأفعل ما تريد»

وبعد ثلاثة أسابيع وصلته رزمة من بروكسل تحتوي على كتاب (الجمل والعجلة)، وبقية الكتب مصورة بآلة الاستنساخ. ولدى الإطلاع عليها، وجدها لا تقدر بثمن.

ثم ازداد وضع هيثم تأزماً بعد سقوط المعسكر الاشتراكي، فسافر إلى باريس، وإلى روما، لدراسة إمكانية الإقامة في أي منهما وكسب رزقه من عمله كرسام. إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. فلم يبق أمامه سوى اللجوء إلى إحدى البلدان التي يمكن أن تقبله كلاجىء سياسي. وفكر في هولندة، لأن الوصول إليها يمكن أن يتم عن طريق بلجيكا، التي يستطيع دخولها

Tele: @Arab_Books

بواسطة ناديا. وفاتح ناديا بذلك، فسرّتها الفكرة كثيراً، ليس فقط لأنه سيكون قريباً منها، بل لأنه سيزداد ارتباطاً بها. ولكي يدرسا إمكانية طلب اللجوء إلى هولندة، اتفقا على أن يقوم بزيارة أولى إلى بلجيكا، ليتاح له الدخول إلى هولندة حسب اتفاقية بنيلوكس (بين بلجيكا، وهولندة، ولوكسمبورغ). وفي زيارة ثانية إلى بلجيكا، ينفذ خطة اللجوء... وفي غضون ذلك رأت ناديا أن تقوم بتدريسات خصوصية (في اللغة الإنكليزية)، لتوفر مبلغاً من المال لاستئجار شقة أو غرفة لهيثم لمدة شهر على الأقل، «فلا يمكن أن أصرف عليك من مال زوجي، كما أنني لا أستطيع أن أنزلك في بيتنا!».

وبعد أن شعرت ناديا أنها وفرت مالاً يكفي لاستضافة هيثم لمدة شهر على الأقل، أخبرت زوجها بأنها تحب أن تدعو صديقاً عراقياً يقيم في بودابست إلى بلجيكا، وأن دعوة منه، هو، زوجها، يمكن أن تيسر له الحصول على تأشيرة الدخول إلى بلجيكا، بحكم كونه هو مواطناً بلجيكياً وموظفاً بارزاً في شركة عالمية. فربط زوجها بين سفراتها إلى بودابست وهذا الصديق العراقي، وسألها عن درجة علاقتها به، فقالت: «حميمة».

«هل أفهم من هذا أنك تحبينه؟»

«نعم، كارل»

«ناديا، أنا لا أحب أن أرفض لك طلباً. لكنني أتساءل إلى أين ستُفضي علاقتك به، وإلى أين ستفضي علاقتك بي؟»

Tele: @Arab_Books

«كارل، يا عزيزي، أنت رجل متحضر، وتتفهم مثل هذه العلاقة. وأنت، أصلاً، لك علاقاتك. فلماذا تثير هذا الموضوع؟»

«أنا أثيره لأنك عاملتني بقسوة، يا ناديا».

«أوه، كارل، أنا أعتز بك كثيراً. أنت بمثابة أب بالنسبة لي. أرجوك، لنترك الحديث عن هذا الموضوع. إذا كنت تحبني، أو تكن لي وداً، فأرجو أن تلبي التماسي».

«طيب، ناديا، سأوجه إليه دعوة. قدمي لي المعلومات الكافية عنه».

«شكراً، كارل، أنا أعرف أنك لا تخذلني».

وكتبت إلى هيثم تبشره بأنها قادرة الآن على استضافته، وطلبت منه أن يزوّدها بمعلومات عن جوازه. وبعد استلامه الدعوة، قدم الطلب على تأشيرة الدخول لدى القنصلية البلجيكية. وبعد أسبوع استلم الڤيزة.

كانت في انتظاره بالمطار. قالت له في آخر مهاتفة بينهما، إنه يستطيع أن يراها واقفة وراء الشرفة الزجاجية المطلة على المسافرين القادمين، في المطار. وقد لمح تلويحتها حين تطلع إلى الشرفة، وتحرك باتجاهها.

كانا كلاهما سعيدين جداً بهذا اللقاء: هو، لأنه التقى بها في البلد الذي تقيم فيه، والذي يتطلع إلى مشاهدته، لأنه يزوره لأول

Tele: @Arab_Books

مرة في حياته؛ وهي، لأنها تلتقي به لأول مرة في البلد الذي تقيم فيه. سارت معه إلى المرآب. ومن هناك مضت به في سيارتها الغولف الرصاصية إلى بناية ڤيڤالدي في حي شومان الراقي. كانت شقته (من طراز الأستوديو) راقية. . . أرته الحمام، والمطبخ الصغير. وعلمته كيف يسحب السرير من الجدار، ويطرحه على أرض الغرفة، عند النوم. وأعطته مفاتيحه (لباب العمارة، وصندوق البريد، وغرفته). ثم سألته: «هل أنت جوعان؟».

«لا، لأنهم أطعمونا في الطائرة».

«فلنذهب، إذن، لنشرب القهوة في أحد المقاهي».

ذهبا إلى شارع لويز، ثم ركنت السيارة في شارع فرعي، قرب مقهى تعرفه. وترجلا من السيارة، ومشيا بعض المسافة إلى المقهى. واتخذا مقعديهما متقابلين أمام مائدة بين حاجزين يوفران خلوة للجلاس. وجاءهما صاحب المقهى، بقوامه الأقرب إلى الامتلاء، وابتسامته التي تنم عن طيبة ومعرفة بناديا، وحياهما، ثم سألهما عن طلبهما. فاقترحت ناديا أن يشربا القهوة (بالحليب) مع الكيك.

شعر هيثم الآن بسعادة لا مثيل لها، لأنه يحل ضيفاً على امرأة تحبه، وستوفر له كل أسباب الراحة والمتعة على مدى شهر كامل. إنه شيء لا يكاد يتحقق إلا في الأحلام. فأعرب لناديا عن امتنانه الجم لأنها حققت له هذه الزيارة. فأكدت أنها لم

Tele: @Arab_Books

تفعل ذلك من أجله فقط، بل من أجلها أيضاً، لأن لقاءهما في بروكسل يوفر عليها، كزوجة وأم، الكثير من حالات القلق التي تواجهها عندما تسافر. ثم إنها تحب أن تكون في صحبته هنا في البلد الذي تقيم فيه وتعرفه، ليكون لحياتها هنا طعم آخر، أكثر حلاوة، بحضوره. ثم سألته عن كل شيء ترك في نفسها أثراً حلواً في بودابست. فأجابها بأن بودابست يباب بغيابها. ثم سألته:

«وكيف كنت تقضي الوقت بدوني؟»

«لم أفتقدكِ لحظة واحدة»

نظرت إليه باستغراب، وتساءلت: «ماذا تقصد؟»

«لأنكِ كنت معي دائماً، يا عزيزتي!»

«آه، أنت تتلاعب بأعصابي»

«إلى حد أنكِ كنت سلطانة عليَّ حتى في غيابك»

«كيف؟»

روى لها كيف أن زوجة صاحب الشقة التي يقيم فيها اغتنمت فرصة سفر زوجها وابنيها إلى كاليفورنيا، ودعته على وجبة غولاج في منزلها، لكنه اعتذر لها في التلفون في صباح اليوم الموعود، لأنه لم يجد من اللائق أن يرفض دعوتها وجهاً لوجه ساعة طرحت عليه الدعوة.

فضربت ناديا الطاولة بيدها، واندلق شيء من القهوة على

Tele: @Arab_Books

الطاولة، وقالت: «هيثم، ما هذه الأخبار؟ أنت تفاجئني دائماً بأخبار تثير أعصابي. . . لماذا لم ترفض دعوتها من البداية؟».

«كان ذلك محرجاً، يا عزيزتي».

قالت بعصبية: «لا، غير محرج، لا سيما وأنها تعرفني. ألا تذكر أنها شاهدتني أكثر من مرة عندك، عندما كانت تتسلم الأجرة الشهرية؟ إنها امرأة رخيصة».

«ليس بالضرورة أن تكون رخيصة، يا عزيزتي».

«وتدافع عنها؟ ما أدراني، لعلك زرتها بالفعل».

«اسمعي، ناديا، يا عزيزتي. أولاً، أنا لم أزرها. قلت لك سابقاً إنني لا أحب أن أكذب على أحد، ولا سيما عليك. وثانياً، أنا جاد حين أؤكد أنها ليست رخيصة».

«أنا لا أفهم لماذا تدافع عنها. ألا يعني هذا أنك ربما كوّنت علاقة معها؟».

«يا حبيبتي ناديا، لماذا تفقدين أعصابك بسرعة؟ دعيني. . .».

قاطعته، قائلة: «هيثم، إن أقل ما يقال فيك هو أنك تفتقر إلى الذوق السليم. هل من اللائق أن تحدثني في الساعة الأولى لوصولك عن غرامياتك؟».

«ناديا، أنا آسف جداً. . . هذه ليست غراميات، بل على العكس، كنت أريد أن أثبت لك أنني مخلص لك حتى عندما أتعرض إلى مغريات».

Tele: @Arab_Books

«وتسمي هذه مغريات؟ إنها خيانة، أو مشروع خيانة».

«ناديا، يا عزيزتي، أنت حساسة أكثر من اللزوم. . . لماذا لا تصغين إليّ بهدوء؟».

«طيب، أكمل. هل هناك تتمة؟».

«لماذا تتحدثين معي بغضب؟ أنا أحبك حد العبادة، وأردت أن أضرب لك مثلاً على ذلك».

«لا، هذا شيء لا يطاق. أنت تسيء إليّ كثيراً».

اقترب منهما صاحب المقهى بابتسامته الرقيقة، وقال بفرنسيته المهذبة جداً، وهو يمسح القهوة التي اندلقت على الطاولة ويرفع كوب قهوتها: «هل من مشكلة، يا صديقيَّ؟ سآتي لكِ بكوب قهوة جديد!».

شكرته ناديا كثيراً، وقالت له: «أنا آسفة جداً، مسيو أنتوان. وستجعلني كثيرة الامتنان لك إذا كانت القهوة ساخنة جداً، كما تعلم».

«طبعاً، طبعاً».

بعد أن ابتعد صاحب المقهى، ضحك هيثم، وقال: «أنت لا تنسين دائماً أن تؤكدي على أن تكون القهوة حارة جداً، ثم كان يحسن بك أن تضربي الطاولة بقوة أكبر، لتندلق القهوة من كوبي أيضاً، وأحظى بكوب آخر!».

«ها أنت تضحك وكأنك لم تسبب لي إساءة».

Tele: @Arab_Books

«ناديا، يا عزيزتي، لننسَ الموضوع، ولا نعود إليه، أنا لم أتطرق إليه لأجل أن أسيء إليك، بل على العكس».

«لا، أنا لا أريد أن أنسى الموضوع قبل أن أفهم أبعاده».

«طيب»، قال هيثم «على أن نناقشه بهدوء».

«لا بأس. هل تسمح لي بأن أسألك سؤالاً؟».

«نعم، بالطبع».

وبعد أن قدم صاحب المقهى كوب القهوة لناديا، شكرته، وقالت لهيثم:

«لماذا جاملتها ووافقت على دعوتها، مع أنك تعلم أنها لم تكن لطيفة أو ودية معنا حين تجدني معك؟».

قال: «هذا كله صحيح. لكنها حين جاءت آخر مرة لاستلام أجور الشقة، حدثتني عن زوجها، جورج، الذي ذهب إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس لتدريس مادة الكيمياء الحيوية. وبعد بضعة أشهر استقدم ولديهما من أجل تحسين لغتهما الإنكليزية. وتحدثت معي عن أشياء أخرى. ثم اقترحت أن تدعوني على وجبة الغولاج. فهل من اللائق، يا عزيزتي، أن أرفض دعوتها مباشرة؟».

«نعم، لأنها رخيصة».

«ناديا، اسمحي لي أن أقول إنها ليست رخيصة. بل على العكس، امرأة قوية، وشديدة الاعتداد بنفسها. ألا تتفقين معي؟».

Tele: @Arab_Books

«أما أنها قوية، فنعم، أعترف بذلك. لكنني أعتبرها رخيصة».

«ناديا، يا عزيزتي، لماذا تعتبرينها رخيصة؟ اسمحي لي أن أوضح رأيي فيها، وفي أمثالها من النساء.. هذه السيدة، حين دعتني على وجبة الغولاج المجرية، في غياب ابنيها، بعد غياب زوجها، وجدتها فرصة ذهبية للتواصل مع رجل (غريب) بعد انقطاع زوجها عنها مدة تزيد على السنة، وفرصة ذهبية أيضاً للتغيير بعد عشرين سنة من تكرار الوصال الجسدي الرتيب، الذي لم يعد له أي طعم، مع زوجها... عفواً، قد ينطوي هذا الكلام على استهانة بالقيم والأخلاق. لكننا شاهدنا فيلماً سينمائياً سوية، أنت وأنا، هل تذكرين، كيف التحمت ربة البيت مع جارها في عناق، ثم مواقعة، فور أن انتهى من إصلاح صنبور الماء الذي انكسر في بيتها والتمست منه مساعدتها في ذلك. كان ذلك بغياب زوجها، كما تذكرين. وبررت ذلك بأنها وجدته تغييراً حيوياً للإيقاع الجسدي المكرور حد الملل مع زوجها على مدى خمس عشرة سنة. أنا لا أريد أن أبرر ذلك. لكنني أعتقد أن هذا لا يبرهن على أن هذه المرأة، أو تلك، رخيصة. هل تفهمينني؟».

«أوه، هيثم، أنت دائماً تواجهني بمنطق يبدو معقولاً أو مقبولاً... طيب، لننسَ هذا الموضوع، ما دمت امتنعت عن زيارتها، وأنا أصدقك».

لاحظ هيثم سلوك ناديا الواثقة من نفسها، في بلد إقامتها.

Tele: @Arab_Books

وعزز هذا عند هيثم انطباعاً بأنها أقوى مما تصورها، وأكثر قدرة على تدبير أمورها.

قالت له: «هيثم، أنا سأواصل إعطاء الدروس الخصوصية لأوفر مزيداً من المال، لتغطية حركتنا في بلجيكا، وهولندة، وربما لوكسمبورغ إذا شئت».

«نعم، ناديا، كان اسم هذه الدوقية يثير فضولنا في دروس الجغرافيا والتأريخ».

«طيب، سنحاول زيارتها أيضاً. . . لكنني، هنا في بروكسل، لن يكون في مقدوري أن أسهر معك في الشقة إلا في بعض الأيام. أرجو أن لا تشعر بالوحشة».

«مطلقاً. إن وجودي معك في مدينة واحدة يمنحني إحساساً بالإلفة والسعادة».

«أوه، هيثم، أنا سعيدة جداً بوجودك. أتمنى أن لا ينقضي الشهر بسرعة».

ثم قالت له: «كما أخبرتك، يا عزيزي، لديّ أعمال والتزامات هنا: ابني، وزوجي، والدروس، والأعمال الأخرى. لذلك سيتعين عليك أن تشغل نفسك في أوقات غيابي عنك، بالقراءة، أو الرسم، أو أي شيء آخر. . . أنا أعلم أنك لا تفضل الحركة بدوني. . . لكنني، على أية حال، سأتركك الآن، لأُعِدَّ الغداء لابني الذي سيعود من المدرسة، وأبقى معه بعض الوقت

Tele: @Arab_Books

قبل أن يذهب للعب كرة التنفس. وسأستقبل زوجي بعد ذلك، وأقدم له الطعام. ثم أذهب لأعود بابني من الملعب. وبعد ذلك أوافيك بحضوري، لنتعشى في مطعم (فرس الماء)، وأبقى معك بعض الوقت...».

في اليوم التالي تجولت معه في السيارة في ضواحي بروكسل، وعرّجت على منطقة ترڤورين الساحرة، وزارا المتحف الإفريقي. ثم عادا إلى الحي الذي تسكن فيه، وأدخلته بيتها، وقدمت له قهوة. تناولها وهو يشعر بأنه ضيف بالخلسة، مع أن هذا الإحساس لم يكن له مبرر. وحدثته هنا عن الفراغ الذي تشعر به في بيتها الذي يبدو لها كسجن كبير، مع أن هيثم وجد منظر شجرة الصنوبر في حديقة المنزل من الشرفة خلاباً. فأكدت له بأن الجنة بلا بشر تُمَلّ. ثم عادت به إلى شقته بعد أن اشترت له وجبة طعام سريع، بأمل أن تعود إليه عند حلول المساء. وقد تزود بكتاب من مكتبة البيت ليزجي به وقته.

في تلك الليلة قررت أن تنام معه حتى الصباح. وحين عادت إلى عمارة ڤيڤالدي، أخبرته بأنها كانت محرجة أمام ابنها وزوجها على حد سواء. لابنها افتعلت عذراً، أما زوجها فقد أخبرته بأن هذه لن تتكرر كثيراً. وقالت: «ها أنا ذي ألعب دور مدام بوڤاري، وآنا كارانينا!».

تذكر هيثم هاتين السيدتين جيداً. كان يتعاطف بالكامل مع الزوج في الحالتين، الدكتور بوڤاري (الذي مثّل دوره في الفيلم

Tele: @Arab_Books

السينمائي الأميركي ڤان هيفلن بنجاح باهر، في طيبته ولطفه وربما سذاجته)؛ والسيد كارينين، بكل صرامته وأخلاقيته العالية. وقد أحب ـ هيثم ـ آنا كارانينا أكثر من مدام بوڤاري. بل إنه لم يعجب بهذه الأخيرة، ولم يتعاطف معها بأي شكل من الأشكال. ثم فكر الآن في وضعه ووضع ناديا. وتراءى له أن وضع ناديا أقرب إلى وضع آنا. . . وأحس بتأنيب ضمير تجاه كارل، زوج ناديا.

لكن ناديا ما برحت أن قالت: «وهل تعلم ماذا قال كارل؟».

«ماذا قال؟».

«قال: أنا، على أية حال، لا أريد أن أضغط على حريتك، ما دمنا في طريقنا إلى الانفصال».

فقال هيثم: «هذا يُريح ضميري بالنسبة لكارل، لكنه يعذبني بقدر تعلق الأمر بك».

«لماذا، هيثم؟ ماذا ترمي من وراء كلامك؟ هل أنت نادم على علاقتنا؟».

«لا، يا حبيبتي. أنا لست سعيداً بعلاقتنا هذه فحسب، بل اعتبرها ذروة السعادة بالنسبة لي. لكن ضميري يبقى يعذبني، لأن سعادتي هذه ربما كانت سبباً في تردي علاقتك مع زوجك. أنت ستربحين حبيباً مفلساً وتخسرين زوجاً يوفر لك كل شيء».

لكنها عادت إلى موضوع السأم، الذي كان يدمرها، ثم تلاشى بعد أن تعرفت عليه، إلى حد أن كل شيء في بلجيكا

Tele: @Arab_Books

أصبحت له نكهة أخرى. وصارت تجد لذة حتى في إعطاء الدروس، وهو عمل لا يخلو من إرهاق وتحضير، لكنه أصبح مستعذباً لأنه مكّنها من استضافة هيثم.

وزارا متحف بروكسل، الذي وجده هيثم عامراً بعدد من الأعمال الفنية الرفيعة، لا سيما لوحات رينيه ماغريت. وقد استوقفته لوحة «ليلية» له مع أضوائها المذهلة، فوجدها من بين أجمل و«أنظف» ما شاهده من لوحات. كما أعجبته كثيراً لوحة جيمس أنسور (دخول المسيح إلى بروكسل).

وفي عصر ذلك اليوم ذهبا إلى Grande Place، وشربا القهوة في المقهى الذي شهد زيارة كارل ماركس، وربما لنين أيضاً. . . وفي لوڤان اطلع على كتب قيمة عن حضارات الشرق الأوسط القديمة؛ وتناولا وجبة سپاغيتي لذيذة في كافيتيريا الجامعة؛ وذهبا إلى أقدم مقهى فيها. وزارا مدينة بْروج، وتجولا في أحيائها التي لا تزل لها نكهة القرون الوسطى. وفي غينتْ استمتعا بمعرض أزهارها، كالبيغونيا، والأزاليا. وفي أنتويرپ لم ير هيثم ضرورة لمشاهدة سوق الماس، بل زارا منزل الفنان روبنز. وهناك، في مطم يقع لصق بيت روبنز تناول هيثم ساندويشاً وجد فيه رِشّاداً لأول مرة في أورپا، ساغ له كثيراً، وذكّره بالقول المأثور «أجود الحُرف (أي الرشاد) ما كان في بابل».

وحقق أمنيته في زيارة منزل الفنان الأثير لديه، پول ديلڤو، ومتحفه في بلدة قريبة من مدينة أوستاند البحرية. واشترى ألبوماً

Tele: @Arab_Books

للوحاته المعروضة في هذا المتحف. لكنه افتقد صورة المرأة المستلقية عاريةً على سرير مترف في محطة للسكك الحديد، وخلفها ثلاث سيدات مرتديات بدلات سوداء من الرقبة حتى القدمين، مع ربطات عنق بنفسجية كبيرة. وهي من اللوحات التي يحبها هيثم.

واستغرقتهما زيارة لوكسمبورغ نهاراً كاملاً، أمضيا أكثر من نصفه في الطريق، ذهاباً وإياباً. وجالا في شوارع المدينة، التي بدت لهيثم مركزاً لمصالح مالية. وكان أجمل ما رسخ في ذاكرته من هذه الدوقية، التي كان ملهوفاً لزيارتها، استراحتهما في حديقة عامة، بعد أن تناولا غداءهما في أحد المطاعم، وهناك استلقى هيثم على ظهره، على مصطبة، واستمتع بمنظر أشجار الحديقة الباسقة، التي ذكرته بلقطة سينمائية من فيلم روسي، لعله (الحرب والسلم)، كان بطله، الضابط الجريح، مستلقياً على ظهره وينظر إلى أعلى بعينين غائمتين، فيرى الأشجار فوقه في حالة دوران مستمر.

لكن مزاجية ناديا انتكست في الطريق إلى هولندة. شعرت بأنها غير راغبة في أي شيء، ولا تود الحديث مع هيثم. هكذا، بلا أي سبب. وجمت، وأخذت تدمدم أول الأمر، وتصب غضبها على الطقس، فقد كانت الدنيا تمطر بغزارة. ورفضت الكلام معه، مواصلة السير، في سيارتها، وهي برمة بكل شيء. وقالت: «هذا وضع لا يطاق».

Tele: @Arab_Books

فقال هيثم: «تقصدين المطر؟».

«كل شيء».

صُعق هيثم، ولم ينطق بكلمة. لكن الدم صار يغلي في عروقه، وشعر بإحباط لا مثيل له. فماذا يفعل، وهو في الطريق، تحت وابل المطر، في صحبة إنسانة لا ترغب في تبادل الحديث معه. لكنه سألها مع ذلك:

«ناديا، هل أنت مستاءة مني؟».

«أنا متكدرة المزاج إلى حد كبير».

ها هي تعود إلى مزاجها المتقلب، السوداوي، مرة أخرى. لكن سلوكها الآن لم يكن ناجماً عن سبب واضح. واسترجع هيثم في ذهنه كل أحاديثه ومواقفه معها في الآونة الأخيرة، فلم يقف على سبب لجفوتها هذه. وهما الآن في منتصف الطريق إلى هولندة. فما معنى مضيّهما في السفر؟... لكنهما كانا قد حجزا في فندق في لاهاي، بأمل أن يبقيا ليلتين في هولندة. لم يدرِ هيثم ماذا يفعل، وكيف يتصرف، سوى أنه شعر بإحباط قاتل للمرة الثانية في علاقته مع ناديا.

قطعا الطريق كله إلى الحدود الهولندية دون أن ينطق أي منهما بكلمة. وكانت الدنيا ما تزال تمطر بغزارة... وفكر هيثم في دخيلته: يبدو أننا سنواصل الرحلة كغريبين. وهل ستبقى على جفوتها طوال هذين اليومين إلى أن تعود ـ يعلم الله متى ـ إلى

Tele: @Arab_Books

وضعها «الطبيعي»؟ لكن ما هو وضعها الطبيعي؟. . . مع ذلك كان يتحرق إلى ابتسامة منها، وانقشاع الغمة بأي شكل من الأشكال.

بعد أن اجتازا الحدود البلجيكية، فكر أيضاً: هل هو مسافر مع امرأة طبيعية؟ فهي تسوق السيارة بكل براعة ورباطة جأش، لكن وجهها لا يعكس ذلك الانشراح الذي عهده فيها. وعند أول بلدة داخل الحدود الهولندية، ركنتْ ناديا السيارة في مكان يسمح فيه بالوقوف، أمام جدار لمصنع أو مخزن لحفظ بضائع تجارية. وترجلت من السيارة دون أن تقول شيئاً، ثم فتحت الباب الخلفي، وتناولت الحقيبة الصغيرة التي وضعت فيها عدة الطعام، ثم عادت إلى مقعدها. وفتحت الحقيبة، وأخرجت منها ساندويشين لهيثم مع قنينة عصير، وقالت: «سنأكل غداءنا هنا، ونستريح قليلاً قبل مواصلة الرحلة».

«شكراً، ناديا، فأنا جوعان حقاً».

«وأنا أيضاً، هناك ساندويش دجاج مع طماطم، وآخر بالجبن مع الخس، لكل منا».

«شكراً، حبيبتي!».

«إذا استمر المطر، سأفقد أعصابي».

«إذن هو المطر، يا عزيزتي؟».

«لا، ليس المطر وحده. . كل شيء».

Tele: @Arab_Books

ضحك، وقال: «تقصدينني أنا؟».

«هيثم، اتركني رجاء، ولا تناقشني».

«طيب». ثم أردف: «You are the boss».

لم تعلق على كلامه الأخير في شيء.

ثم خف المطر قليلاً، وواصلا مسيرتهما بعد أن انتهيا من تناول الساندويش، ولاح في الأفق انفراج في الغيم، فقال هيثم:

«سينقشع الغيم».

«وإلا سأفقد أعصابي تماماً».

«هذا يذكرني بأمي!».

«ماذا؟».

«قلت أمي».

«ما بها؟».

«المطر ذكرني بها».

«ماذا تقصد؟».

قال هيثم: «حين كنت، في الصغر، آكل من القِدر أحياناً، كانت أمي تقول: من يأكل من القدر سيكون عرسه في يوم ماطر. ويبدو أنها صدقت!».

ضحكت ناديا، وقالت: «أنت تجبرني على الضحك. لحسن الحظ إنك تملك روح نكتة».

Tele: @Arab_Books

«ولحسن الحظ آن الغيم انقشع، وإلا ماذا كان يمكن أن يكون مصيري، إذا رميتِ بي في قارعة الطريق!».

«هل تعتقد أنني سأفعل ذلك؟ اطمئن، يا عزيزي، وأرجو أن تتفهم مزاجي».

«أتفهَّمُ، يا عزيزتي. لكنك قطّبت عليّ جبينك بلا سبب، ولا أظن أن ذلك بسبب المطر، لأننا شهدنا مطراً في مناسبات كثيرة ولم يعكر مزاجنا!».

«هيثم، سامحني».

«طيب، سامحتك. لكن أعصابي لن تتحمل نزوات أخرى، لا سيما وأنا ضيف هنا عندك. فليس من الإنصاف أن يُهان الضيف».

«أوه، هيثم، أنا آسفة جداً. وأعدك بأنني لن أكرر ذلك».

كانت ناديا قد حجزت جناحاً (Suite) في موتيل، ليتسنى لهما أن يركنا السيارة في مرآبه. وفي الموتيل التمست من هيثم أن تنام زهاء ساعة لتستريح من تعب السياقة، ثم يذهبا بعد ذلك إلى متحف موريشيوس لمشاهدة لوحات ڤيرمير. وفضل هو أن يستلقي لينعم بقسط من الراحة والاسترخاء. ولم يكن هيثم ممن اعتادوا على القيلولة بعد الظهر. فبقي يقظاً طوال الساعتين تقريباً، اللتين استغرقتا ناديا في نومها. وشغلت باله الآن علاقته بها، ومستقبل هذه العلاقة. فهو يشعر بأنه لم يعد يستطيع الافتراق عنها، رغم ازدياد قناعته باهتزاز شخصيتها.

Tele: @Arab_Books

وعندما استيقظت، قالت له: «هيثم، أنا آسفة. نمت كجثة هامدة. ألم تأخذ غفوة؟».

«لا. قد لا تعلمين أن ذهني يكون نشطاً في مثل هذا الوقت».

«بماذا كنت تفكر؟».

«بحياتنا».

«صحيح؟ تقصد أنت وأنا؟».

«نعم».

«وإلى ماذا توصلت؟».

«إنني أزداد قناعة، يوماً بعد آخر، بارتباط مصيري بك».

هجمت عليه تقبّله، وتقول: «وأرجو أن تعلم أنك بهذا القرار تزيح عني أكبر همّ».

«سنبحث هذا الموضوع سوية، بما في ذلك الفرص الممكنة للحياة سوية».

قالت بسرور بيّن: «نعم، هيثم، سنبحث ذلك. والآن، هل نذهب إلى متحف موريشيوس؟».

«هيا بنا».

توجها إليه بالترام، بعد أن استعلما عن موقعه من موظفة الاستقبال في الفندق. وفي الطريق إلى المتحف، نبهته ناديا أن لا يفوّت فرصة مشاهدة بنات الهوى في الڤترينات وهن يعرضن فتنتهن. فاستثاره المنظر، وقال: «الإغواء الأخير للمسيح!..».

Tele: @Arab_Books

سألته: «هل تحب زيارة المكان؟»

«نعم!»

«أحب أن أراك مع إحداهن!»

«لا مانع عندي، البتة!»

«قد نجرب ذلك في بروكسل».

«أنا على أتم الاستعداد!».

وفي المتحف، توقف هيثم أمام لوحات ڤيرمير الثلاث المعروضة هناك: ديانا وحورياتها؛ ومنظر مدينة ديلفت؛ والفتاة ذات القرط اللؤلؤي، التي قصد هذا المتحف من أجلها. كانت من بين أجمل اللوحات التي شاهدها في حياته... ثم قرر زيارة آمستردام لمشاهدة لوحة ڤيرمير الأخرى، خادمة المطبخ (التي تصب الحليب من جرة)، وكان معجباً بها كثيراً أيضاً. وزارا متحف فإن غوخ أيضاً، الذي لا يستغنى عن زيارته أي قادم إلى آمستردام.

في أثناء تناولهما طعام الغداء في مطعم مكسيكي في آمستردام، أعرب هيثم لناديا عن رغبته في استغلال هذه الفرصة للبقاء في هولندة، لولا أنه بحاجة آل تصفية متعلقاته في بودابست. وهنا، أيضاً، أخبرته ناديا بأن علاقتها بزوجها لن تدوم، وهي باقية في بيت الزوجية إلى أن يُنهي ابنها الدراسة ما قبل الجامعية، بعد عام ونصف من الآن. ثم يتفقان، هي

Tele: @Arab_Books

وزوجها، على حسم موضوع الطلاق. وقد وعدها زوجها بأن يُمدها بمبلغ من المال شهرياً، بعد الانفصال، إلى أن تجد هي عملاً لها. لكنه وضع سقفاً زمنياً لذلك، هو عامان، وبعد ذلك يقطع عنها المعونة.

وفي أمستردام، اتصل هيثم بأحد معارفه من العراقيين اللاجئين، وهو فنان أيضاً. والتقى به في متحف ڤان غوخ، بحضور ناديا. كان محمد جميل لطيفاً جداً، وبعد أن داروا في أرجاء المتحف، اقترح هيثم الذهاب إلى أقرب مقهى. وفي المقهى استفسر هيثم من زميله عن ظروف الحياة في هولندة، لا سيما بالنسبة للاجئين. فأكد محمد جميل أن اللاجىء السياسي هنا، كما في أي بلد آخر، يحظى برعاية أفضل من اللاجىء لغرض إنساني، الذي يُفترض فيه أنه كان أقل تعرضاً للخطر في بلده الذي اضطر إلى الهجرة منه. وأن الشعب الهولندي أكثر تفهماً لأوضاع اللاجئين من بعض الشعوب الأخرى، كالإسكندنافية مثلاً، حيث يعاني اللاجئون من العزلة الاجتماعية، وحتى التمييز العرقي، والاحتجاج على وجودهم كأفواه تُطْعَم على حساب دافعي الضرائب من المواطنين. ثم سأله هيثم:

«وهل يجد الفنان هنا فرصاً لعرض نتاجه؟».

«نعم».

وعندما سأله هيثم عن مستلزمات وآلية طلب اللجوء، أكد محمد بأن الطريقة التقليدية المتبعة هي أن يقدم الشخص طلب

Tele: @Arab_Books

لجوء سياسي، ثم يُنظر في طلبه، ويُفرض عليه أن يمضي ستة أشهر في مخيم للاجئين إلى أن يُبت في أمره. لكن هيثم عاد فسأل زميله إنْ كان في وسع مقدمي الطلب من أمثاله، كفنان ومثقف، أن يعاملوا معاملة خاصة. فقال محمد إن هذا ممكن بعد الاتصال بهولنديين متفهمين لأوضاع أشخاص مثله هو، هيثم. وأبدى استعداده لتعريفه بأشخاص هولنديين يمكن أن يتبنوا قضيته. وأشار إلى أنه يعرف عائلة هولندية من زوج وزوجة، الزوج محام وفنان هاوٍ، والزوجة موسيقية، على استعداد لإسداء معروف بهذا الشأن، لأنهما، كليهما، لهما اهتمام بفنون الإثنيات والشعوب الأخرى.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

IV

في غضون ذلك كله، لم يكن هيثم منقطع الصلة بعائلته في بغداد. أو أن عائلته كانت هي المبادرة دائماً بالحفاظ على هذه الصلة بينهما، حتى عندما تضعف وتصبح أوهن من شعرة. كانت زوجته أميرة تكتب إليه، وتسأله عن إمكانية التحاق العائلة به. فكان ذلك يرعبه حتى قبل أن يتعرف بناديا، لأنه لا يستطيع إعانة عائلة بكاملها في الغربة، وتحمل كافة المسؤوليات تجاهها، كما أنه ألف حياة الوحدة، وصار يشعر بأنه لم يعد يفضل تغيير نمط حياته الجديدة. وكان لا يني يقدم الأعذار، ويذكر الأسباب التي تُقعده عن تحقيق مشروع الالتحاق، رغم أن ضميره كان يعذبه، لأنه تخلى ـ عملياً ـ عن تحمل مسؤوليته المباشرة تجاه العائلة. وكان أكثر ما يوجعه في الصميم رسائل ابنته أطياف المتعلقة به جداً، والتي يحبها كثيراً. أحزنته إشارتها إلى أن تأريخ إحدى رسائلها صادف في يوم عيد ميلادها، وعذبته بكلماتها: «قد لا تعلم، يا أبي، مقدار شوقي إليك، ورغبتي في رؤيتك بعد كل ذاك الفراق. أتمنى أن يكون بمقدوري المجيء إليك، ولو بمفردي، إذا تعذر عليك استقدامنا جميعاً. فأنا أريد أن أعيش معك، يا أبي، بعد إنهاء الدراسة الإعدادية».

Tele: @Arab_Books

لكنه استطاع أن يخفف من غلواء عذابه، بعد أن صار بإمكانه أن يُغدق عليهم بالمال. فعلى حين فجأة، انفتح باب الرزق عليه على مصراعيه. بعد أن علم عن رواج سوق اللوحات ذات المواضيع العربية «الأصيلة» في دول الخليج، أخذ هيثم يرسم مزيداً من صور الخيل، وصور المضارب، والمراعي. فتدفق المال عليه، وارتفع شأناً حتى في عيني ناديا. . . في آخر زيارة لها إلى بودابست، قرر السفر معها إلى ڤيينا؛ وهناك كان يردّ لها شيئاً من «دَينه» لها أيام زيارته إلى بروكسل. لكنه كان يصرف كل ما يرده من مبيعات لوحاته، ولا يكاد يدخر فلساً لليوم الأسود.

بعد مرور سنة على زيارته لبروكسل، شعر بأن الأوان قد آن لتقديم طلب آخر للحصول على تأشيرة دخول إلى بلجيكا ليدرس مشروع اللجوء. وكانت تلك رغبة ناديا أيضاً. فالتمست من زوجها أن يحرر دعوة إلى وزارة الخارجية البلجيكية لتيسير زيارة هيثم. فاستجاب كارل بفتور، لأنه لم يكن متحمساً لأن يقترن اسمه بهذا الغريب الذي قد يسبب له مشاكل يوماً ما. ثم مر أسبوع، وأسبوعان، ولم يصل الجواب إلى القنصلية البلجيكية في بودابست، مع أنهم أخبروا هيثم بأن الجواب يصل في العادة بعد أسبوع من تقديم الطلب. وعندما أخبر ناديا بذلك، رجته أن ينتظر أسبوعاً آخر قبل أن تفاتح زوجها مرة أخرى. ومر الأسبوع الثالث بلا جواب أيضاً. فقلق هيثم كثيراً، ورجا ناديا أن تفعل المستحيل من أجل إقناع زوجها بالاتصال بوزارة الخارجية البلجيكية لتحريك الطلب، لأن رفض منحه تأشيرة الدخول

Tele: @Arab_Books

سيقلب عليه كل الموائد، ليس فقط لأنه سيُحرم من فرصة اللجوء إلى هولندة، بل ويحرم أيضاً من منح أية تأشيرة دخول أخرى إلى أي بلد أوروبي. وعاش هيثم تلك الأيام في حال من القلق الشديد. وأحاط ناديا علماً بخطورة الوضع، فقلقت هي الأخرى كثيراً. واضطرت إلى الكلام مع زوجها حول ذلك، مشيرة إلى أن رفض الطلب ستترتب عليه نتائج وخيمة بالنسبة لهيثم. ورجت زوجها بأن يبذل جهده من أجل إنقاذ وضع هيثم، فوافق. وبعد أن اتصل تلفونياً بالدائرة المعنية، وصلت الموافقة. فزف هيثم إليها النبأ، ورجاها أن تعرب لزوجها عن امتنانه الجم، ففعلت.

وكان عليه الآن أن ينهي علاقته بالمجر، ويودع كل شيء، بعد أن عاش فيه أكثر من عشر سنوات. وكان أشق مهمة واجهته هي تصفية مخلفاته. لكن أشق ما في ذلك هو اضطراره إلى تصفية الكثير من أوراقه، بما في ذلك الكثير من رسائل ناديا. وقد فعل ذلك إيماناً منه بأنه سيكون أقرب إليها. فلم يقلق يومذاك على رسائلها التي ضحى بها.

استأجرت له غرفة (استوديو) فاخرة في نفس المجمع - الجديد - الذي انتقلت إليه. كانت ناديا، هذه المرة، تقيم مع ابنها فقط. استأجر زوجها لهما هذه الشقة الجميلة المطلة على منظر ساحر، من الخلف؛ وله شقة أخرى، ما دام حبل الوصال قد انقطع بينه وبين زوجته. فكان كل من ناديا وهيثم يتمتع بحرية أكبر في هذا اللقاء.

Tele: @Arab_Books

أحبّا أن يُمضيا الأسابيع الأولى بلا هموم أو مراجعات. أرادا أن ينسيا مشروع اللجوء في بدء هذا المشوار، لكي يستمتعا بفترة إقامة هيثم في الشقة (الاستوديو)، التي دفعا لاستئجارها مبلغاً لا بأس به من المال. وكانت ناديا قد وضعت برنامجاً لهذا المشوار، من بين فقراته زيارة ديربْوِي، التي لم تُتَح لهما سابقاً؛ ومشاهدة أفضل العروض السينمائية، والحفلات الموسيقية، إلى جانب الذهاب إلى المطاعم التي تأتي على مرام ناديا، وكانا يُمضيان صباحاتهما في المدينة. وفي أكثر الأحيان في الـShopping Centre، الذي تتوافر فيه بعض الصحف العربية (لمتابعة أخبار العراق التي كانت أكثر تأزماً في تلك الأيام). وفي أوقات العصر، كانا يشربان القهوة من إعداد ناديا ويتناولان الغاتو في شقتها الجميلة، ويتطلعان إلى «الغابة» من غرفة الجلوس، ويستمتعان بمنظر طيور خضر فاتنة تقصد هذا الركن من «الغابة» عصر كل يوم، في وقت معين.

وذات يوم فاجأ خولة البحراني بالاتصال بها من شقة ناديا. فسرّت كثيراً بهذه المبادرة، وأكدت لهيثم أن دخيلتها كانت تحدثها بأن العلاقة بينه وبين ناديا بدت لها شيئاً لا مفر منه منذ لقائهما الأول في كوينزوي، لكنها تخشى أن تكون ـ هي ـ مسؤولة أو ملومة إذا تعقدت الأمور، في ضوء وضع كل منهما. . . وعندما استلم نزار السماعة، أطلق ضحكته الهادرة كالعادة، وقال لهيثم: «سوّي تونُّسْ، شيخْ شرّام!» وهي مقولة

Tele: @Arab_Books

تعني «تمتع، يا شيخ (قبيلة) شمّر!» قيل إنها أطلقت على لسان هندي لعله كان مرافقاً لجنرال بريطاني كان قد دعا شيخ قبيلة شمّر على حفلة راقصة (في العراق) في أيام الاحتلال البريطاني للعراق بعد الحرب العالمية الأولى. وذهبت مثلاً.

وقد كانت زيارة ديربوي، ومشاهدة باليه (شعار الربيع) لسترافنسكي، إلى جانب المسرات الحسية، أهنأ وأجمل فقرات برنامجهما لهذا المشوار البلجيكي الثاني.

ثم آن أوان تقديم الطلب، فاتصل هيثم بصاحبه محمد جميل، وأخبره بأنه «أحرق سفن» العودة، وهو الآن جاهز لتقديم طلب اللجوء، آملاً أن يعامل بما يليق به كفنان. فاتصل محمد بصديقيه مارتن المحامي ـ الفنان، وزوجته الموسيقية كاترينا، وأبديا استعدادهما لمساعدة هيثم، وضربا موعداً للقاء في منزلهما.

كان اللقاء مع مارتن وكاترينا حدثاً مهماً في حياة هيثم، ليس فقط لأنهما لعبا دوراً حاسماً في إنجاز معاملة لجوئه السياسي، بل أصبحا، أيضاً، صديقين حميمين له ولناديا، وصورة مشرقة عن الشعب الهولندي في نظر هيثم. قبل كل شيء أذهله بيتهما، الذي كان أنيقاً جداً ومترفاً بأثاثه ومحتوياته. كان بيتهما متحفاً صغيراً يكاد يغص بمحتوياته الجميلة من اللوحات، والفخاريات النادرة، والپورسلين، والزجاجيات، والسجاجيد. ولاحظ هيثم أن اللوحات كلها أصيلة. بعضها يابانية من القرن التاسع عشر (للفنانين هوكُوساي، وهيروشيغة، وتشيكانوبا)؛ وبعضها بريشة

Tele: @Arab_Books

مارتن، بينها واحدة تذكّر بحياة جامدة لسيزان؛ وبعضها بريشة خال أم كاترينا. وعلم هيثم أن سجادة الممر، الإيرانية، اشترتها كاترينا باثني عشر ألف يورو.

وسُر مارتن حين علم أن هيثم يهوى رسم الخيل، وأحب أن يرى بعض نتاجه في هذا الميدان. وأعلن عن استعداده الكامل لتبني طلب لجوئه، مؤكداً أنه سيسعى إلى إنجاز المعاملة دون المرور بمرحلة المخيم. وقد نفّذ وعده. وخُصص لهيثم سكن ومبلغ شهري للنفقات الأخرى.

وكانت ناديا ما تزال تقيم في الشقة الجديدة، في بروكسل، مع ابنها سامي، وتواصل إعطاء الدروس الخصوصية باللغة الإنكليزية، لتوفر ما تكسبه لليوم الأسود. وفي أثناء ذلك كانت هي تزور هيثم في لاهاي، في أغلب الأحيان، لأنها لم تكن تفضل أن يمضي هيثم الليالي معها بحضور ابنها.

وبعد مضي عام ونصف تم انفصال ناديا عن زوجها بعد التحاق ابنها بالجامعة، وسيصبح كارل في حل من الإنفاق على سكنها، فتعين عليها أن تبحث عن سكن جديد ـ أقل كلفة ـ تتحمل هي نفقاته. وانتهت بذلك مرحلة الترف التي عاشتها ناديا في حمى زوجها، وستجد نفسها ملزمة بالبحث عن عمل أيضاً، لأن المخصصات التي وعد بها زوجها على مدى عامين بعد الطلاق لا تكفي للسكن وإدامة الحياة. وهنا شعر هيثم بنوع من المسؤولية تجاه ناديا، فطرح عليها فكرة الإقامة معه، رغم ما

Tele: @Arab_Books

يترتب على ذلك من إحراجات له ولها. لكن ناديا ترددت في قبول هذا العرض، ما لم يحسم هيثم موقفه مع عائلته.

كانت هي الآن في حال شديدة من الإحباط والضياع. فقد التحق ابنها بالجامعة، وبقيت هي بمفردها، ما لم يحسم موقفه المتردد مع عائلته. طرحت هذه الفكرة في سياق مكالمة هاتفية معه، قبل تسليم الشقة بشهر. فطلب منها هيثم أن تحزم أمتعتها وتتوجه إلى لاهاي في كل الأحوال. لكنها ناقشته قائلة:

«هيثم، قلت لك أنا لا أريد أن أتخذ هذه الخطوة إلا بعد أن تعطيني كلاماً نهائياً بالنسبة لوضعك. وضعنا السابق كان شيئاً آخر. أما الآن فسيكون مختلفاً إذا أقمتُ معك. هل تفهمني؟».

«أقول لك تعالي، هل تفهمين؟».

«أفهم ماذا، هيثم؟ أنا سأصبح بعد الآن امرأة بلا زوج. كيف سيكون وضعي معك؟ هل تفهمني؟ ماذا سيكون موقفي إذا علم أبي بذلك؟».

«هل تريدين أن أنفصل عن زوجتي؟».

«هيثم، أنا لا أقترح شيئاً. هذه مسألة يعود تقديرها لك».

«طيب، تعالي، وأنا سأحسم المسألة».

«متى تحسمها، هيثم؟».

«ناديا، اتركي الأمر لي، ولا تفرضي عليّ حلولاً فورية، فمثل هذه الأمور لا تحل بساعة».

Tele: @Arab_Books

«نعم».

«طيب».

قبل موعد تسليم الشقة بأسبوع، اتصلت ناديا بهيثم لتحيطه علماً بأنها تلقت نداءً تلفونياً من أبيها يخبرها بأنه مصاب بسرطان في البنكرياس، واستحصل على موافقة من رئيس الجمهورية على السفر إلى بلجيكا للقائها والعلاج في مستشفيات بروكسل. فأبدت ناديا كامل استعدادها للقاء أبيها وبذل كل الجهود الممكنة لعلاجه. لذلك ستؤجل تسليم شقتها إلى أجل غير مسمى. وقد تكلمت بهذا الشأن مع زوجها كارل، فأبدى تفهماً، واستعداداً لدفع نفقات الإيجار طيلة مدة بقاء أبيها.

وكان لقاؤها بأبيها مؤثراً جداً بالنسبة للطرفين. استقبلته ناديا وابنها سامي في مطار بروكسل. دمعت عيناها بعد أن تعرفت عليه بيسر (كان تبادل الصور بينهما جارياً عن طريق المراسلات). لكنها لاحظت هزاله الواضح. وكان هذا سبب دموعها. واحتضن السيد مصطفى البياتي حفيده سامي بمحبة، وتكلم معه بإنكليزية سليمة. ثم انتقلا فوراً إلى شقتها. وأمضى والدها أكثر من شهرين في صحبة ابنته وحفيده. كان في أثناء ذلك يراجع المستشفى، ويتلقى علاجاً كيمياوياً chemotherapy. ولم يكن المبلغ الذي سُمح له بتحويله في العراق إلى العملة الصعبة يكفي

Tele: @Arab_Books

للعلاج، فتحملت ناديا بقية النفقات. وكان هذا بفضل مضاعفة ساعات تدريسها. وعاد أبوها إلى العراق دون أن يتحسن وضعه الصحي، سوى أن العلاج الكيماوي أبطأ تدهور صحته السريع. لكنه كان سعيداً جداً باجتماعه بابنته وحفيده، ولو لمدة محدودة. وقد أسرّها في هذه الزيارة بأنه سيغير مذهبه (السني) إلى شيعي لأجل أن تستلم ابنتاه كل الإرث بعد وفاته، ولا يشاركهما فيه أخوته، وفق تشريع المذهب السني، وهي أشياء لم تفهمها ناديا.

وعند لحظات الوداع، في المطار، لم تستطع ناديا السيطرة على دموعها. بكت بحرقة على فراق أبيها، لأنها تعلم أنها لن تراه بعد ذلك. وتأثر أبوها كثيراً أيضاً، لكنه كرجل وكعسكري، سيطر على دموعه، سوى أن صوته خذله، حين نطق بكلمات الوداع. وعادت ناديا إلى شقتها وهي في حال شديدة من الاكتئاب. فاتصلت بهيثم على الفور، وبكت في التلفون قبل أن تنطق بشيء. فذعر هيثم، وسألها: «ماذا حدث، يا ناديا؟».

«أبي».

«ما به؟ هل...».

«لا، سافر».

«ناديا، هل تحبين أن أوافيك بحضوري؟».

«لا، سآتي أنا، فمجيئي بالسيارة أسهل».

«طيب، أنا بانتظارك».

Tele: @Arab_Books

كانت تريد أن تبكي على صدر أحد، فقد انفصلت عن زوجها، وستفقد أباها قريباً، ولن يبقى لها أحد، سوى ابنها، وأمها، وأختها، المتزوجتين في الولايات المتحدة، وهيثم بولائه المزعزع. مع ذلك كان هو أكثر شخص تشعر بالانتماء إليه.

فور استقبالها، قالت له: «هيثم، أنا حزينة جداً. بكيت كثيراً في الطريق. حزنت لمصير أبي، كان إنساناً رائعاً... تعلم أن الإحساس بالموت الوشيك يجعل الإنسان يشعر بالضعف، ويزيده رقة ولطفاً، وحباً للآخرين... أنا لم أعرف أبي من قبل... كان ملاكاً ناحلاً، ورقيقاً جداً معي. حاولت أن أرفع من معنوياته. اصطحبته إلى المطاعم والمقاهي الفاخرة، وإلى المتاحف، ودور السينما... شاهدنا فيلم (العلاقات الخطرة)، وفيلم (الإغواء الأخير للمسيح). وكان يكرر حزنه وأسفه لانفصاله الاضطراري عنا. وكنت أؤكد له بأنني أتفهم ذلك... ثم انهارت معنوياتي عند فراقه. بكيت بهستيريا. وكاد هو ينهار أيضاً، لكنه تماسك... هيثم، أنا إنسانة شقية. إعمل شيئاً من أجلي».

احتواها بذراعيه، وقال لها: «اعتمدي عليّ».

أمضت معه ليلة هانئة، لأنه بات الشخص الوحيد الذي يحقق لها سعادة نفسية وروحية. في ذلك اللقاء كانت تسأله بين الحين والآخر: «هل تحبني؟». وكانت طوال العلاقة بينهما توجه إليه هذا السؤال، فيقول لها: «طبعاً، يا حبيبتي». لكنه الآن قال لها:

Tele: @Arab_Books

«أنت تفسدينني بسؤالك هذا، وتجعلينني أشعر بقوة سلطاني عليك!».

أجابته قائلة: «نعم، أنا أشعر بضعفي أمامك. لا أدري لماذا. دعني أصارحك القول، أنا أخشى أن تتركني. هذا الهاجس يرعبني، ويجعلني أكثر تمسكاً بك، مع أنني في بعض الأحيان أشعر بأنك جسد غريب في عالمي!».

«أذكر ذلك جيداً، مرة في بودابست، في زيارتك الأولى، والأخرى في الطريق إلى هنا، هولندة. جعلتني أشعر بأنني منبوذ بكل معنى الكلمة. هل كنت تحتقرينني آنذاك؟».

ضحكت، وقالت: «نعم!».

«لماذا تفعلين ذلك؟».

«لا أدري».

«ولماذا تتراجعين بعد ذلك؟».

«لأنني لا أريد أن أخسرك».

«لكنك تعلمين أنني أحبك».

«نعم، أعلم ذلك، ومع ذلك أخشى أن أخسرك».

«كيف؟».

«لأن هناك امرأة أخرى في عالمك».

هنا أحس هيثم كأن نصلاً اخترق جسده، فقد وضعت ناديا إصبعها على نقطة الضعف عنده. فهو رغم كل رغبته بالالتزام

Tele: @Arab_Books

تجاهها، وعدم التخلي عنها، لأنه يحبها حباً لا يتزعزع، إلا أنه يبقى مشلول القدرة على التخلي عن زوجته. وكانت هذه أول مرة تشير فيها ناديا بوضوح إلى غريمتها التي تنغص عليها راحتها. ولسوف تكون أميرة، زوجة هيثم، مصدر رعب قائم يؤرقها ما بقيت على قيد الحياة، لأنها تعلم أنها أقوى منها بحكم كونها تملك ورقة الزواج من هيثم، وإنها أم لابنين له.

لكن هذا الخطر ابتعد عنها أربع أو خمس سنوات بحكم ظروف خاصة وموضوعية. فقد التحقت أطياف بكلية الهندسة التكنولوجية. وازداد تضييق السلطة في بغداد على السفر. وبات التحاق العائلة به، بعد ذلك، غير عملي. فشعر هيثم بأن الضغط زال عنه ولو إلى أجل. وفي تلك السنوات ازداد إحساس ناديا بانتمائها إلى هيثم بعد وفاة أبيها. وشكل الاثنان مع مارتن وكاترينا رابوعاً منسجماً في اهتماماتهم الثقافية والفنية، وصاروا يتزاورون ويشهدون الكثير من الفعاليات الفنية والموسيقية سوية. وقد سُر مارتن كثيراً عندما أهدى هيثم لهما لوحة جميلة من لوحاته عن المضارب العربية.

لكن البيت كان ينقلب عليه مأتماً كلما اتصلت به العائلة من بغداد، رغم أن هيثم يحرص على أن يحمل جهاز التلفون في أثناء هذه المكالمات إلى غرفة النوم، ويطبق الباب. فإما أن تثور ثائرة ناديا على الفور، وتسمعه أقسى كلمات التعنيف وأوجعها،

Tele: @Arab_Books

أو إنها تكتم غضبها ثم تنفجر عندما تشرب كأسين أو ثلاثاً. وعند ذاك تصبح أكثر عدوانية وشراسة.

وذات مرة حصلت المشادة بينهما في مقهى، فتركها وخرج مغضباً. لكنها هرولت في إثره تعتذر إليه. وابتعد عنها. لكنه أحس بوجودها خلفه بعد خطوات، تحث الخطى للحاق به، وهي تهمس بضراعة: «هيثم، هيثم، أرجوك». ثم لان موقفه، وعاد معها إلى الشقة.

وفي مرة أخرى، تهجمت عليه وهما في البيت، وأسمعته كل ما يجرحه من الكلام، فترك الشقة وهو في ذروة حالات الغضب، لأنه وجد أنه لا يستطيع تحمل كلامها الجارح دون أن يضربها. كان ذلك في الليل، فارتعبت كثيراً، وأسرعت الخطى خلفه، وهي تتضرع إليه أن يعود إلى البيت واعدة إياه بأنها لن تكرر ذلك. وبكت بهلع، وقالت: «هيثم، لا تتركني وحدي، فقد أجن». كان قرر أن يمضي الليلة في فندق. لكن بكاءها وهلعها جعلاه يعدل عن قراره. وعاد معها إلى البيت وهو يرفض الكلام معها. فبكت في البيت، وقالت له: «هيثم، أنا امرأة معذبة، لأنني أشعر بأنني insecure، هل تفهمني؟».

عند ذاك شعر هيثم بأنها جردته من أي حق في لومها. لكنه كان يريد أن تتفهم موقفه أيضاً، فهو إنسان ذو ضمير، ومن حقه أن يتواصل مع عائلته. فاقتنعت بالأمر الواقع. وعاد الوئام بينهما على أتم ما يكون. ورغم كل نوباتها العصابية معه، فقد كانت

Tele: @Arab_Books

وبقيت متعلقة به تعلق طفلة بأبيها. أما هو فقد ظلت في عينيه تلك المخلوقة الأثيرية مثلما تراءت له في لقائه الأول بها، ولا يعتقد أنه يستطيع أن يجد لحياته طعماً بدونها.

وأحبت ناديا أن يستعيدا أيام سعادتهما الماضية، فسافرا إلى بودابست. ونزلا في فندق (رويال)، الذي نزلت فيه ناديا في زيارتها الأولى، لموقعه في قلب المدينة، وقربه من فندق (بيكا)، وجزيرة مارغيت، وساحة الأبطال، التي قررا زيارتها جميعاً. ولم يجدا عازفة البيانو العجوز في جناح المقهى في فندق (بيكا). كما لاحظا أن النادلة الشابة الوسيمة التي كانت تبتسم لهما، بدت الآن أقل بهجة وحتى أناقة من قبل. وقد تسمم هيثم ربما من قشدة الكاپوتشينو التي تناولها في هذا المقهى، وتعرض لإسهال أوقفه بعد تناول حبوب يحملها معه في السفر... وزارا سوق الفلاحين في ساحة موسكو (التي لم يتغير اسمها)، فشاهدا أن السوق لم يتغير في شيء في العهد الجديد، لكن البناية الملاصقة له، ولعلها كانت تعود إلى البلدية، هُدمت وبُني مكانها مجمع تجاري حديث. وزارا سوپرماركت (شكالا مترو)، فلم يلمسا فيه تغيراً يذكر. لكنهما لاحظا أن هناك سوپر ماركتات هائلة جديدة بنيت في ضواحي بودابست. وأن وجوه الناس لم تتغير (لم تبدُ أكثر إشراقاً)، أو لعل هيثم تصورهم كذلك. ثم زارا الحي الذي كان يقيم فيه هيثم، وشاهدا يوزيف صاحب الشقة الأولى التي

Tele: @Arab_Books

كان يقيم فيها هيثم، فسلما عليه، وتحدث إليهما بوده المعهود، بإنكليزيته المحدودة جداً. وأحبت ناديا أن تلقي نظرة على شجيرات البندق، فوقفت أمامها، ولامست أوراقها بحنين طاغ إلى تلك الأيام. وكان يتملك هيثم هاجس بأن هذه السفرة قد تكون أشبه باستعراض وداعي لحياته مع ناديا. وعادا من الطريق الخلفي، الذي لا يسلكه الباص، وأخذ هيثم يعدد أسماء الأشجار التي تصادفهما، وناديا تقول بحسرة: «أوه، يا إلهي، كم كانت تلك الأيام جميلة».

كان هيثم في غضون ذلك يتسلم رسائل من ابنه وابنته، يحيطانه علماً فيها بأخبارهما. وقد تخرجا، وتزوج كل منهما، وكان هيثم يبارك ذلك كله... ثم حل اليوم الذي كان يخشاه. فقد اتصلت به أميرة، وأخبرته بأنها لم يبق لها خيار سوى الالتحاق به بعد أن تزوج ابناهما. فكان وقع ذلك عليه رهيباً. وندّت عنه كلمة «ماذا؟» بكل ما تنطوي عليه أبعاد الاستنكار.

فقالت: «هيثم، هل ترفض التحاقي بك؟».

لم يدرِ كيف يجيبها: «اسمعي، أميرة، أنت فاجأتني بهذا القرار».

«فاجأتك أم لم أفاجئك، أرجو أن تعلم أنّ لا خيار لي الآن غير الالتحاق بك».

«اسمعي، أميرة، أنا لا أحب أن تحدثيني بهذه النبرة».

Tele: @Arab_Books

«بأية نبرة تريدني أن أتحدث معك؟ أنا زوجتك، وأريد أن ألتحق بك. هل هذا واضح، أم بحاجة إلى تفسير؟».

«قلت لك أنت فاجأتني بهذا القرار. وبصريح العبارة، أنا لا أستطيع استقبالك الآن».

كان وجهه قد احتقن تماماً. فهو لا يعلم ماذا سيقول لناديا، التي تعلم أن المكالمة من زوجته.

قالت أميرة: «ليش يابه؟».

«ليش ما ليش، أرجو أن تعلمي أنني لا أستطيع استقبالك الآن».

«طيب، متى تستطيع؟».

«يا إلهي، ما هذه الطرقاعة؟».

«هيثم، اسمعني. أنا لست غشيمة. أنا أعلم أن هناك امرأة في حياتك. لا تعتقد أن الأخبار لا تصلنا. كل شيء يصلنا. هل تسمعني؟ الشائعات كانت تصلني من كل مكان. ولم تبق امرأة أعرفها لم تقشب وتحذرني من تصرفاتك. حتى أن الشائعات تتحدث عن ابن لك من هذه الإنكليزية أو الأميركية، مع أنني لا أصدق ذلك، لأنني أعلم أنك لا تحب الإنجاب، ولا أنسى غضبك عليّ حين حملت بأطياف. . . وأنا أعرف من هي المرأة التي تعيش معك، هل تريد أكثر من ذلك؟. . .».

«اسمعي، أميرة. . .».

Tele: @Arab_Books

«اسمعني أنت، يا هيثم، إلى أن أنتهي من كلامي. أنا أعرفك جيداً، وأقدر أنك لا تستطيع أن تعيش كل هذه السنوات بدون امرأة، أنت أصبحت لك حياتك الخاصة في الغربة. أنا أتفهم ذلك. لكنك دمرت حياتي أيضاً، ولن أنسى هذه الإساءة. لكن ما مضى مضى، ولا داعي لنبشه من جديد. هل تسمعني؟ لنطوِ صفحة الماضي، ونبدأ صفحة جديدة هل تسمعني؟».

«اسمعي، أميرة، أنا لا أستطيع استقبالك الآن».

«متى؟ أنا لن أهبط عليك بعد ساعة، أو يوم، أو يومين. قل لي متى؟».

«يا إله السماوات، أية طرقاعة هذه؟».

«هيثم، أنا أتفهم موقفك. وأنا أعلم أنني لا أستطيع أن أفرض وجودي عليك، رغم أنني زوجتك. لكنني أناشد ضميرك، يا هيثم، فأنا لم يعد لي مجير غيرك».

«أنا أتفهم موقفك جيداً، يا أميرة، وأقدّره. لكنني أريدك أن تضعي نفسك في مكاني، ما دمتِ قد تكلمت بصراحة حول وضعي. هل تعتقدين أنني سأستطيع استقبالك بهذه السهولة؟».

«أنا أتفهم موقفك الآن، يا هيثم. لكنني أريد منك وعداً باستقبالي».

جر حسرة، وقال: «لا أستطيع، أميرة».

«لماذا، هيثم؟».

Tele: @Arab_Books

«لأنني سأسبب دماراً لإنسانة».

«ودماري أنا؟ ألست أنا إنسانة سببتَ لها دماراً طوال هذه السنين، وستقضي عليّ نهائياً إذا رفضت استقبالي؟».

«صحيح، يا أميرة، لكن ضعي نفسك في مكاني».

«هيثم، أنا أقدر وضعك. أنت لا تستطيع ترضيتنا كلينا. وفي هذه الحالة، لا بد من أن تضحي بواحدة منا. بقي أن أسألك، بضميرك، من هي أحق بالبقاء معك؟».

«أميرة، أنت تبسطين المسألة كثيراً في الوقت الذي أتمزق أنا، هل تعلمين؟».

«أعلم ذلك. لكنني أيضاً أتمزق، يا هيثم. فلماذا تتغاضى عن ذلك؟».

«اتركيني رجاءاً، ولا تحاصريني بكلامك هذا. أنت قد تسببين لي انفجاراً في دماغي».

«هيثم، هل تعتقد أن دماغك وحده معرّض للانفجار؟».

«لا، هناك دماغ مسكينة أخرى، أيضاً».

«وما العمل الآن؟».

«أميرة، ألتمس منك أن تدبري حالك مثلما فعلت في السنين السابقة».

«ما معنى هذا، يا هيثم؟ هل تعتقد أن هذا كلام صادر عن إنسان يملك عقلاً في رأسه؟ قلت لك أنا الآن لا أستطيع

Tele: @Arab_Books

الاستمرار على الحياة بمفردي في أوضاعنا العراقية القائمة بعد أن خلا البيت من ياسر وأطياف. هل تفهمني؟».

«نعم، أفهمك. لكنني أريد أن تفهمي موقفي أيضاً».

«هيثم، سأتصل بك فيما بعد، فأنا أسمع صوتاً من موظف البدالة».

«طيب، مع السلامة».

أعاد هيثم السماعة إلى موضعها على جهاز التلفون، وبقي متسمراً في مكانه لا يدري ماذا يفعل. كان رأسه الآن فارغاً من أية فكرة، سوى أنه بدأ يحس بأن الدم في صدغه الأيسر يزداد احتقاناً. ويتعين عليه أن يواجه امتحاناً آخر أعسر، لا يدري كيف سيخرج منه.

تحرك من مكانه، على أية حال، وخرج من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس، فلم يجد ناديا هناك. تقدم نحو المطبخ، فوجدها جالسة على كرسي وقد وضعت مرفقيها على طاولة الطعام، وأسندت وجهها بكفيها، وقف تلقاءها، وقال: «ناديا...».

«ماذا تريد منك هذه المرة؟ أرى أن المكالمة طالت، وقد سمعت بعض كلامك».

«ناديا، أنا محاصر الآن».

«كنت أعلم هذا. وأنت كنت تتهرب من هذا اليوم، حدثني بكل ما دار بينكما من كلام».

Tele: @Arab_Books

لم يتوقع منها هذا الهدوء، لكنه لم يكن يجهل أنها ربما كانت تغلي في دخيلتها. . . أخبرها بكل ما دار بينهما من حديث، على قدر ما أسعفته الذاكرة. فقالت:

«طيب، ماذا سيكون موقفك؟».

وجد نفسه محاصراً بكل معنى الكلمة، بين امرأتين لكل منهما حقها فيه. لكن كلاً منهما من منطلق مختلف. فماذا سيكون موقفه، بالفعل؟ ها هو يدرك الآن أن عليه أن يعطي جواباً واضحاً وصريحاً، دون لف أو دوران، وبلا أية ديباجة يُعرب فيها عن حبه لها، فهي لم تعد ترغب في سماع ذلك. لكنه فطن إلى أنه يستطيع أن يُرجىء اتخاذ موقف الآن، ما دامت المكالمة مع أميرة لم تنته. قال لها:

«ناديا، ستتصل بي أميرة مرة أخرى، وبعد ذلك سنتحدث في الموضوع».

«لا تتهرب، هيثم. كنتَ كل عمرك تتهرب من المواجهة، وحتى هذه اللحظة تلجأ إلى التهرب. أنت تقتلني بترددك هذا».

«ناديا، أنا أتمزق إرباً، يا حبيبتي».

«هيثم، أنت ربطت مصيري بك على مدى خمسة عشر عاماً، وتريد مني أن أبقى في انتظار نتيجة مكالمتك مع زوجتك، التي أعرف أنك لن تحسمها في صالحي؟. . . لتعلم أنني لن أتركك الآن دون أن أسمع منك جواباً نهائياً بشأن مصيري. هل تفهم؟».

Tele: @Arab_Books

«يا إلهي، أي عذاب هذا؟ كل منكما تجلدني بطريقتها الخاصة. وأنا أعلم أنك تكونين أكثر قسوة من أميرة. ألا يمكن أن تكوني أكثر حلماً وتفهماً لموقفي الصعب، فتمهليني أياماً، يا ناديا؟ قلت لأميرة إنني أخشى أن أتعرض إلى انفجار في دماغي؛ وها أنذا أعيد قول ذلك لك».

«أنا آسفة، يا عزيزي، فأنا الآن أغلي كالمرجل، ولن يهدأ بالي قبل أن أسمع منك كلاماً صريحاً وقاطعاً، هذه المرة، بشأن علاقتنا».

«ناديا، أمهليني رجاء بعض الوقت إلى حين المكالمة القادمة مع أميرة، لأن كلامي معها لم ينته. وكما لاحظتِ، نحن كنا صريحين، هذه المرة، أكثر من السابق... أمهليني، رجاء، ها؟».

«طيب، سأنتظر».

تنفس الصعداء، لأنه كان بحاجة ماسة لالتقاط أنفاسه ولو لساعة من الزمن. فلم يكن مستعداً لتحمل امتحان عسير بعد آخر، وهو يعلم أن امتحانه الثاني أصعب لأنه يتعرض له وجهاً لوجه. كان يشعر أنه أصبح كالمتهم في دعويين، ولن ينجو من عقاب مهما اتخذ من موقف. لكنه يعتقد أنه يستطيع أن يتبادل نقاشاً وحديثاً مع أميرة أقل تشنجاً، منه مع ناديا. لذلك عوّل على نقاشه القادم مع زوجته، بأمل أن يفتح لها صدره، ويصارحها بوضعه، ويضعها أمام الصورة بكل أبعادها. وبلغة مسك الدفاتر،

Tele: @Arab_Books

إنه الآن أصبح موزعاً بين موقفين، لكل منهما حساباته الموجبة والسالبة. فأي موقف يتخذ؟ لكنه، كعادته، وكما شخصته ناديا، فضل التهرب إلى حين مكالمة أميرة، التالية. وفكر في مواصلة حياته الاعتيادية مع ناديا. لكنه يدرك أيضاً أن الصدع الذي أحدثته الآن المكالمة التلفونية في نفس ناديا لم يعد خفيفاً أو طارئاً، كالسابق. فلا يدري كيف سيتعامل معها الآن، لأنها لقنته دروساً قاسية في السابق لغير سبب، فكيف الآن وهناك ما يعطيها الحق في أن تكون أكثر صرامة معه... لم يخذله حدسه. قررت ناديا مقاطعته إلى حين استئناف المكالمة بينه وبين زوجته. فزاده هذا عذاباً فوق عذابه. لقد رفضت ناديا الكلام معه، إلا في الأمور الضرورية، وبكل جفوة، وامتعاض. فتذكر مكاشفتها له عن نظرتها إليه في مثل هذه المواقف، وازداد اكتئاباً وغضباً في الوقت نفسه. تملكته الآن، بعد صدودها الفظ، حالة من رد الفعل، والاعتزاز بالكرامة، جعلته يهملها أيضاً، بقدر ما أباحت هي لنفسها إهماله.

لجأ أول الأمر إلى كتبه وأوراقه حول موضوع الحصان. لكنه تذكر أن معظم هذه الكتب والأوراق كان قد توافر لديه بواسطتها... يا إلهي، كم أنا مدين إلى هذه المرأة، وفوق كل شيء بحبها، رغم كل جنونها.

تناول دفتر اسكيتشاته، ورأى أن يشغل نفسه بتخطيط وجوه لا على التعيين. لكنه، بوعي أو دون وعي منه، كان يرسم وجهها

Tele: @Arab_Books

على الدوام. . . كان يحلم بأن يرسم لوحة زيتية لها وهي عارية. وكان يحب أن يرسم عدة صور لها في لوحة واحدة منعكسة في مرايا. لكن صعوبة تنفيذ هذا المشروع (توفير المرايا الكبيرة) حال دون تحقيق هذه الرغبة.

وكانت هي تشاغل نفسها بالكومبيوتر. كانت قبل الآن تمرنت على الرسم بالكومبيوتر. وكان هيثم يجد بعض رسومها جميلاً. حاولت الآن أن تشغل نفسها برسم مخططات زخرفية لبقع ملونة مبثوثة هنا وهناك، وأشجار قائمة على سيقان على هيئة خطوط مستقيمة، أو أشبه بكتل غيمية موزعة بشكل مدروس هنا وهناك. . .

ترك هيثم دفتر اسكيتشاته بعد أن طواه، وتظاهر بالتمشي في الغرفة، كعادته، لكنه كان يراقب من زاوية عينه ما كانت تخططه على الشاشة. وهَمَّ غير مرة بأن يقترب أكثر ويعلق على عملها، إلاّ أنه كان يحجم في اللحظة الأخيرة. ثم لما حان وقت شرب شاي العصر، سألها: «هل تشربين الشاي الآن؟».

«نعم».

كان هيثم يحدس بأن أيامه مع ناديا ربما أصبحت معدودة، لأجل هذا تملكته حال من الاكتئاب شديدة. هل سينتهي ذلك كله، وتنقطع الصلة بينهما، مع أنه عاش معها أعواماً ربما فاقت بعددها الأعوام التي أمضاها بصحبة أميرة. فلماذا تنقطع هذه

Tele: @Arab_Books

العلاقة التي تفوق في سحرها معظم العلاقات الطبيعية أو الرسمية بين الأزواج؟

لم يلتذ أي منهما بشرب شاي العصر مع الكيك والدردشة التي كانت ترافقه، وهي من بين مسرّات الحياة بينهما.

بعد يومين اتصلت به أميرة، كان هو من يجيب على النداءات. رفع السماعة وهو ناقم وغاضب على زوجته لأنها لم تمنحه وقتاً كافياً لالتقاط أنفاسه. كانت ناديا أمام جهاز الكومبيوتر أيضاً. ولاحظ أن يديها توقفتا عن الحركة لدى سماعها جرس التلفون. حمل الجهاز فوراً، ودخل الغرفة الأخرى، وأطبق الباب، ثم رفع السماعة، وقال: «هلو؟».

«هيثم، هذي أنا ثانيةً. هل أسأل عن الصحة؟».

«لا، لا تسألي عن الصحة».

«طيب، كيف هو المزاج؟».

«ماذا تتوقعين؟».

«أنا آسفة، هيثم. لكن ما في يدي حيلة. أنت الوحيد الذي يستطيع أن ينقذني من وضعي، كما قلت لك».

«لكن، يا أميرة، أرجو أن تعلمي أنني ارتبطت بإنسانة لا يسمح لي ضميري بأن أتخلى عنها».

«لكنك مرتبط بي أيضاً، يا هيثم، وعندنا أولاد».

Tele: @Arab_Books

«صحيح. لكنني ارتبطت بهذه الإنسانة أيضاً، وأنا مدين لها بأشياء كثيرة».

قالت بما هو أقرب إلى السخرية: «ما هي هذه الأشياء الكثيرة، يا عزيزي؟».

«اسمعي، أميرة، سأطبق التلفون في وجهك إذا كررت الكلام بهذه الصورة».

«أعتذر، إذن. أنا فقط أردت أن أعرف ما هي الأشياء التي قدمتها السيدة لك».

«أرجو أن تكوني على علم بأنها قدمت لي خدمات كثيرة، في الوقت الذي كنتِ أنت عالة عليَّ، وفوق ذلك تتكلمين بسخرية».

«كانت مساعدتنا واجباً عليك، يا هيثم. هل تعتبر الأولاد عالة؟».

«لا، لكنني، أردت أن أقارن بينك وبينها».

«ماذا قدمتْ لك؟ أنت رسام معروف، ولوحاتك تباع في كل مكان. هل تروم خداعي بادعائك أنها قدمت لك خدمات؟».

«وتكذّبينني أيضاً؟ أصلاً لولاها لما كنت أنا في هولندة، ولما حصلت على هذا اللجوء الذي تريدين أن تنعمي به».

«يعني، ماذا تقصد من كلامك هذا؟».

«أنا أريد أن تفهمي أنك لا تملكين حقاً عليّ أكثر منها».

Tele: @Arab_Books

قالت بسخرية مرة أخرى: «واي واي، العشيقة صارت تملك حقاً أكثر من الزوجة».

«اسمعي، أميرة، قلت لك أن لا تتكلمي عنها بهذه الصورة».

«وكيف تريدني أن أتكلم؟».

«اتركيني. . .».

وأطبق التلفون بقوة، وعاد إلى غرفة الجلوس، كانت ناديا، الآن، مستلقية على الأريكة تقرأ في كتاب، أو لعلها تتظاهر بالقراءة. وذهب هو إلى المطبخ لا يدري ماذا يفعل. فتح الثلاجة، ومد يده إلى قنينة الماء، وصبَّ له جرعة في قدح، ثم شرب الجرعة مع أنه لم يكن يحس بعطش. كان يريد أن يهرب من أميرة وناديا. تلك تلاحقه بلجاجتها وحقها الرسمي، وهذه بحبها المشروط بتفرغه لها. ورن جرس التلفون ثانية، فلم يتقدم من الجهاز. تركه يرن ويرن إلى أن توقف عن الرنين.

قالت له ناديا: «لماذا لم تجب على النداء؟ هذا يؤكد جبنك، على أية حال، أنت تخاف من مجابهة الحقيقة».

لم يجبها.

«لماذا لا تجيبني؟ حتى أنا صرتَ تتهرب مني؟».

نظر إليها بازدراء، لأول مرة في تأريخ العلاقة بينهما، ولم يجبها أيضاً. لكنه بعد لحظة، قال: «أنا سأخرج. . . سأذهب إلى المقهى، ثم أعود بعد ساعة».

Tele: @Arab_Books

«ما هذه التصرفات؟. . . ثم إني لا أطيق البقاء هنا بمفردي».

«وما الفرق، ما دمت ترفضين الكلام معي. خيرٌ لي أن أخرج من البيت، إذن».

«سأخرج معك. لا تتركني وحدي هنا. سنتحدث في المقهى، بهدوء».

«طيب».

في المقهى اتخذا مقعدين في ركن منزوٍ، وطلبت هي شوكولاته ساخنة، وهو كاپوتشينو. كان مزاجها قد تغير الآن. قالت له:

«هيثم، أنا آسفة. أعتقد أنك تتفهم موقفي. أنا لا أريد أن أخسرك».

«لا شك أنك تعلمين أيضاً أنني لا أريد أن أخسرك».

«لكنني أريد أن أعرف لماذا أطبقتَ التلفون في وجهها، ورفضت الاستجابة إلى ندائها بعد ذلك؟».

روى لها ما دار بينهما من حوار، وهو ما أثار غضبه، ودفعه إلى اتخاذ هذا الموقف منها. فشكرته لأن ذلك كان دفاعاً عنها هي. ثم قالت له: «هيثم، أنت أيضاً أملي الوحيد في الحياة. لكن أميرة تملك ورقة زواج منك؛ وهذه تجعل موقفها أقوى مني، في آخر المطاف. وهذا هو سبب قلقي وشقائي».

«لكنني سأحيطها علماً بأنها لا تملك حقاً في امتلاكي».

Tele: @Arab_Books

«قل لي، هيثم، هل تستطيع إقناعها بذلك؟ لماذا لا تصارحها بحبنا؟».

«صارحتها».

«وماذا قالت؟».

أطلق هيثم زفرة، ثم قال: «ماذا قالت؟ قالت أشياء لا أستطيع التغاضي عنها تماماً. فأنا مقصر في حقها وحق العائلة لمجرد كوني تخليت عن المسؤولية المباشرة تجاههم. وهذا يجعلني أشعر بنوع من تأنيب الضمير. لهذا ألجأ إلى أسلوب الإقناع معها. أحاول إفهامها بأنني أحبك، ولا أستطيع التخلي عنك، ولا أريد أن أتنكر للخدمات الكثيرة التي قدمتها أنت لي. . .».

«هيثم، أنا خائفة، ولا أريد أن أبقى في حالة مستمرة من القلق. ما كان ينبغي لي أن أرتبط برجل متزوج. . . كنت أدرك خطأ موقفي منذ البداية. لكنني أحببتك، ولم يعد التفكير بأي رجل آخر يعني شيئاً بالنسبة لي، وتلك هي المشكلة. عندما وقعت في حبك لم أفكر في وضعك العائلي. كنت أريدك، هذا كل ما في الأمر. والآن، بعد كل تلك السنين من العلاقة الحميمة بيننا، وبعد أن انفصلت عن زوجي، سيكون ابتعادك عني كارثة حقيقية بالنسبة لي».

«ولي أيضاً».

هنا، قالت ناديا: «هيثم، أريد أن أشرب الليلة. لنذهب إلى

Tele: @Arab_Books

أحد المطاعم. لا أريد أن أسهر الليلة في البيت. لنذهب إلى مطعم راقٍ نسبياً. أريد أن أشرب نبيذاً فاخراً، أو شامپانيا، وآكل ألذّ الطعام، ونواصل حديثنا... أنا خائفة، وأشعر بفقدان الأمل في حياتي... ولا أدري إذا كان في مقدورك أن تعيد إليّ الإحساس بالطمأنينة».

لم تكن لدى هيثم رغبة في عمل أي شيء قبل الذهاب إلى المطعم مساء. اكتفى بأن استمع إلى الموسيقى من الراديو، واستلقى نصف استلقاء على الأريكة، وهو يفكر في أميرة، وهل سيكون في وسعه إقناعها بوجهة نظره. أما ناديا، فقد جلست أمام الكومبيوتر لتتبين أول الأمر إن كانت هناك رسائل الكترونية لها. فلم تجد شيئاً. ثم فكرت في كتابة رسالة الكترونية إلى شقيقتها للي، تبثها فيها شجنها وهواجسها، وتسألها إذا كانت لديها إمكانية لاستقبالها إذا سُدت الأبواب في وجهها. ثم استحمت، وغسلت شعرها، وجففته بالمجفف الكهربائي، وأعدّت نفسها للسهرة خارج البيت.

شملها هيثم، من مقعده، بنظرة حب وإشفاق (إشفاق على مصيريهما على حد سواء)، ثم التقت عيناه بعينيها. وقال لها: «هل تعلمين أنني لم أملَّ... اعذريني، أريد أن أقول لم أشبع من مرآك يوماً ما. أنت دائماً بالنسبة لي جديدة، أو متجددة، تماماً مثل عناة، التي تبقى بتولاً في الأساطير الكنعانية. وهذا هو سر سعادتي معك!».

Tele: @Arab_Books

رمت بنفسها عليه، وقالت: «هيثم، تستطيع أن تمتلكني الآن، إذا شئت».

«يعجبني جداً، لكنني لا أريد أن أفسد هندامك وتصفيفة شعرك».

«طيب، لنذهب إلى المطعم».

في المطعم ترك لها هي أن تطلب الشراب والطعام، حسب اختيارها، لأنها أكثر خبرة منه في هذه الأمور. وسره أنها كانت متألقة في أناقة ملبسها، وإشراقة وجهها، كانت هي تريد أن تبتهج، وأن تشعر بأن حياتها الحالية ليست مهددة بخطر. لكنه عندما أطرق لحظة، ربما لأن أميرة خطرت على باله، قالت له ناديا:

«ماذا؟».

«لا شيء».

«هيثم؟».

«ماذا؟».

«أنا لا أستطيع أن أعيش معك إذا بقي ذهنك موزعاً...».

لم تعجبه هذه المحاسبة الصارمة حتى لإطراقته. لماذا لا تتفهم موقفه؟ فهو ليس روبوت يستطيع التصرف بمشاعره بالضغط على الأزرار. لكنه لم يُرد تصعيد التوتر بينهما. ترك جذعه الأعلى يسترخي إلى الوراء، ويستند إلى ظهر الكرسي، بعد أن

Tele: @Arab_Books

كان منحنياً قليلاً إلى المائدة. وأفلح في اصطناع ابتسامة، ثم قال: «وأنا لا أريد أن تلجي معي حتى في قراءة أفكاري».
وابتسم مرة أخرى: «دعيني أكن على سجيتي، يا عزيزتي».

«طيب، أنا آسفة، لنستمتع بسهرتنا».

أخبرته بأنها ستواصل إعطاء الدروس الخصوصية باللغة الإنكليزية، لكي ترفع من دخلها. وأكد هو بأنه سيواصل رسم المواضيع التي تدر ربحاً في دول الخليج، لكي يلبي طلبات أميرة المادية، إذا أقنعها بالبقاء في العراق، ويتسنى لهما، هو وناديا، السفر إلى أماكن كان يحلم بزيارتها...

وانصرمت الساعة الأولى على أجمل ما يكون. كانت ناديا في أثنائها تتحدث عن ذكرياتهما في بودابست بحنين طاغ، وتذوب شوقاً حتى إلى أتفه الأشياء. كان أكثر ما حنت إليه، جلساتهما في المساء على إحدى مصاطب شارع الفنادق، المطل على نهر الدانوب، والقلعة في الصوب الآخر. كانا، عادةً، يتناولان الآيس كريم هناك، ويشعران ببهجة الحياة الليلية في هذا الكورنيش الجميل، الذي تظلله أشجار هائلة، تضفي عليه سحراً حلمياً في الليل، وهما ينظران إلى القصر الملكي (السابق) أمامهما في الجهة الأخرى من الدانوب، السابح في الأضواء، وينقلان بصرهما إلى لوحة السماء فوقهما، التي شبهها هيثم بلوحة ڤان غوخ عن المقهى في الليل...

وعندما صعد المشروب في رأسها، قالت: «وكنتُ أتوسم

Tele: @Arab_Books

فيك فناناً واعداً، على غرار پيغماليون، وصانع الوشم الياباني، اللذين كنت تحدثني عنهما. لكنك تحولت إلى رسام مضارب».

ضحك هيثم، وقال: «ربما كانت تلك لعنة الفن. فأنت في الفن تستطيع أن تهبط في مستواك إلى مغريات السوق، لكنك قد لا تجد نفسك مستدرجاً إلى ذلك لو كنت أديباً، أو موسيقياً».

«أم إن هذا الانجرار إلى الفن التجاري كان من أجل الإغداق على زوجتك أميرة؟».

«اسمعي، ناديا، هل أنت جادة في كلامك؟ أم أنت تريدين أن تجرحيني؟».

«لكنك أنت اعترفت بنفسك بأنك تريد أن تلبي طلبات أميرة المادية. أليس كذلك؟».

«يا إلهي، ماذا تبغين من وراء ذلك؟».

«أقصد أنك فاشل في كل شيء... في الفن، ومع زوجتك، ومعي...».

أمسك بقنينة النبيذ، وقربها منه، وقال: «أنت سكرت، على ما يبدو».

سحبت القنينة إليها، وقالت: «دعني أشرب، ولا تعاملني كقاصرة».

قال بحدة، لكن بصوت حرص على أن لا يثير انتباه الآخرين: «ناديا، هل تريدين أن تفسدي سهرتنا وتسممي علاقتنا؟».

Tele: @Arab_Books

«أنت الذي سمّمت علاقتنا».

«لكننا كنا على أحسن ما يكون من الوئام قبل أن تشربي».

«ربما كان ذلك في الظاهر، أما في أعماقي فأنا مجروحة وضائعة، هل تفهم؟».

احتقن وجهه، وكاد أن يفقد السيطرة على أعصابه ويصرخ في وجهها، لكنه استطاع السيطرة على نفسه، وقال: «نعم، أفهم، يا عزيزتي».

قالت بسخرية: «وماذا أقبض من تفهمك هذا؟».

عاد إليه غضبه، وقال: «اسمعي، ماذا تريدين مني؟».

«لا أريد شيئاً، فقد فات الأوان، أو إن الحكاية كلها كانت فالصو من البداية. هل تفهم؟».

«ليكن، فماذا تريدين؟».

«لا أريد شيئاً. . فقط أريد أن تعلم أنك إنسان ضعيف، وفاشل». وشدّدتْ «فاشل في كل شيء، هل تفهم؟».

«يا إلهي، لماذا تهينينني؟».

«أهينك لأنك فاشل. هل تفهم؟».

نهض. وأشار إلى النادل بأن يأتي بقائمة الحساب. وقال لها: «طيب، أنا فاشل. لنخرج من المطعم».

«أنا لم أنته بعد من الشرب».

«إذا أصررتِ، سأدفع الحساب، وأتركك».

Tele: @Arab_Books

«هيثم، لا تفعل ذلك».

قال بحدة: «اسمعي، قلت سأخرج من المطعم معك أو بدونك. هل تفهمين، وإلى الجحيم أنت وشربك».

والتزم الصمت إلى أن دفع الحساب. أما هي فقد واصلت الكلام متفننة في اختيار أوجع الكلمات التي تضرب على وتر إهانته والتوكيد على أنه إنسان فاشل في كل شيء. ثم نهض وتحرك دون أن يعيرها التفاتاً. وإذ لاحظت إصراره على إهمالها، نهضت بهلع، وتبعته إلى الخارج. وسار باتجاه البيت، حثيث الخطى، وهي تكاد تعدو خلفه وتناديه: «هيثم، هيثم، أرجوك».

لم يحفل بندائها، ولم يلن لنبرتها التي أصبحت الآن متضرعة. كان في الذروة من غضبه. بل إنه دفعها عنه حين اقتربت منه وحاولت الإمساك بيده. فبكت، وعلا نشيجها. واستمر نشيجها يلاحق سمع هيثم، دون أن يستجيب إليها. لكنها هزت ضميره عندما هتفت باسمه بنبرة تنم عن أقصى تعابير الهلع والتضرع. فتوقف، ومد يده إليها لتمسك بها.

عاد إليه هدوء طبعه، وزال غضبه تماماً، ليحل محله إشفاق صارخ عليها، ورغبة في الركوع أمامها (أمام ضعفها المريع الذي مزق نياط قلبه). لكنه اكتفى بأن احتواها بيديه، وقبّلها من جبينها، وقال:

«طيب، لنذهب إلى البيت».

Tele: @Arab_Books

سارا صامتين إلى البيت، لكنه ظل ممسكاً بكفها طوال الطريق، وفي البيت، اتخذا مقعديهما على كرسيين متلاصقين، دون أن يخلعا ملابس السهرة. بادرته ناديا قائلة: «هيثم، أنا آسفة جداً. لم أكن أعني شيئاً من كل ما قلت. صدقني، أنا أحبك حباً جنونياً، ومعجبة جداً بك».

«كنت أتصور أنك أرفع مستوى من ذلك».

«أنا ضعيفة الآن، يا هيثم، وأشعر أنني سأخسرك... وهذا يُفقدني صوابي، هل تفهمني؟».

«أنا أفهمك جيداً، يا عزيزتي. لكنني لا أستطيع أن أتقبل ما بدر منك مطلقاً، لأنه يهزّ الصورة التي أحملها عنك».

«هيثم، لا تقل هذا الكلام. إن ما قلتُه لا يمتّ لي بصلة».

«لقد أفسدتِ علينا السهرة».

«هيثم، لا تلمني».

ظلا بقية الأيام يعيشان حالاً من القلق والرعب من جهاز التلفون. ولم يستطيعا استعادة أجواء الطمأنينة التي كانا ينعمان بها قبل مكالمة أميرة. وبعد مرور عشرين يوماً أو نحوها على نداء أميرة الأخير، وصلت هيثم رسالة منها. لم يفتحها أول الأمر. تركها على نُضد قرب باب الشقة دون أن يفتحها. وإذْ أدركت ناديا أنها منها، قالت لهيثم: «لماذا لا تفتحها؟ افتحها، فأنا أريد أن أعرف ما جاء فيها».

Tele: @Arab_Books

فتحها، وقرأها بصمت. كانت الرسالة تبدأ بمخاطبته مباشرة، بلا كلمة «عزيزي». وقد اقتصرت على الأسطر الآتية:

هيثم

أنا آسفة جداً لإلحاحي عليك. قلت لك لم يعد لي ملجأ غيرك. لذلك سأتوجه إليك. ولا أظنك ستطردني أو ترفض استقبالي. فأنا لا أزال زوجتك وأم أولادك... أنا أنتظر منك إنجاز معاملة لمّ الشمل.

أميرة

وناولها الرسالة، فتسلمتها وقرأتها، دون أن تعلق عليها في شيء. لكنها توجهت إلى التلفون، وطلبت فلوريدا، فجاءت أختها للي على الخط. وبعد التحية المقتضبة، أخبرتها بأنها ستتوجه إليها بعد أيام، فرحبت بها للي.

وبعد بضعة أيام سافرت ناديا إلى فلوريدا، رافضة مرافقة هيثم لها إلى المطار. لكنه تبعها، تاركاً بينه وبينها مسافة لكي لا تراه. وفي القطار إلى المطار استقل العربة التالية لعربتها. ولدى وصولهما المطار، اقترب منها، وتناول حقيبتها الكبيرة، ملتمساً منها أن تدعه يقوم بهذا الواجب. فدمعت عيناها، ووقفت في حالة استعداد لعناقه. احتواها بذراعيه، وقال: «لي رجاء منك، يا ناديا، هو أن لا تتركيني دون أن تزوديني بعنوان ورقم تلفون للي».

Tele: @Arab_Books

ابتسمت بأسى، وقالت: «طيب».

وبقي في صحبتها إلى أن أُعلن على شاشة التلفاز عن توجه المسافرين إلى بوابة إقلاع الطائرة. فعانقها، وعاد إلى شقته كمن أفاق من حلم دام خمس عشرة سنة.

كتبت في أوائل ٢٠٠٦

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

هذا الكتاب

كانت زوجته قد أوت إلى النوم قبل أن يتجاوز الليل شطره الأول. وأحس بلسعة برد، فرأى أن يرفع درجة حرارة المدفأة. وحاول، أيضاً، أن يبعث الدفء في أوصاله، فأخذ يتمشى في الغرفة رواحاً ومجيئاً. كان قد كلَّ من الجلوس. وكان منذ مبارحة زوجته الغرفة، أطفأ جهاز التلفزيون، وفضل أن يستمع إلى الموسيقى. أحبّ أن يستمع إلى عزف على التشيلو أو الفيولا دا غامبا، من أحد أشرطته المسجلة.

Arab_Books